المشيرات الشخصية في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي

Personal Deixis in Sharh Nahj al-Balagha by Ibn Abi al-Hadid al-Mutazili

أ. د. كاظم داخل الجبوري

بتول ناجي هادي

جامعة المثنى – كلية التربية للعلوم الإنسانية قسم اللغة العربية

Prof. Dr.Kadhim Dakhil Al-Jubouri

Batoul Naji Hadi

Al-Muthanna University, College of Education for Human Sciences, Department of Arabic Language

الملخص

من المفاهيم واضحة الأثر هي المشيرات، ويتضحُ أثرها عن طريق العمل على تنظيم المحادثة على وفق عددٍ من المعايير أو المقولات المحدّدة للمسافة بين طرفي الخطاب (المتكلّم والسامع) من جهة، وبين (المشار والمشار إليه) من جهة أخرى، وهي ألفاظٌ معينة، تشير إلى ألفاظ معينة لبيان معنى ما، قد يكون غامضًا على المتلقّي، وتأتي على أنواع منها: الشخصية، والزمانية، والمكانية، والخطابية، والاجتماعية، وكلها تحتاج إلى مرجع يحدّد مقصديتها، ولا يتحدَّد ذلك إلّا في سياق الخطاب التداولي، ليصل القارئ إلى إبداع المبدع؛ فتتحقّق الغاية من النص حينئذٍ، وإلّا كان لغوًا.

وسيجري في هذا البحث تحليلُ بعض كلام ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه لنهج البلاغة، على وفق هذه النظرية، وبيان أثر المشيرات الشخصية حصرًا، في نصوص مختارة من تعليقاته وشرحه، لكلام أمير المؤمنين (عليه السلام)، لبيان المعاني الغامضة والمبهمة، كي تتحقق رسالة المتكلّم وتُفهم من لدن المتلقي، وهما طرفا العمليَّة التواصلية، اللذان لابد من تواجدهما في أيّ نصٍّ لغوي.

الكلمات المفتاحية: المشيرات –الشخصية– التداولية – شرح نهج البلاغة – ابن أبي الحديد.

Abstract

This research analyzes some aspects of Ibn Abi al-Hadid al-Mutazilis interpretation of Nahjul-Balagha and examines the impact of personal deixis in his explanations and commentary on the Sayings of the Prince of the Believers (pbuh). The aim is to clarify ambiguous meanings and enhance communication between the Speaker and the listener/reader, a key element found in any linguistic text.

المقدِّمة

المشيرات عنصرٌ من عناصر التداوليَّة، ويُقصد بها كلُّ ما يُشير إلى ذات أو موقع أو زمن، وعادة ما يُفهم منها تعيين مكان الأشخاص وهويتهم، والأشياء، والعمليات والأحداث والأنشطة بالنسبة إلى السياق المكاني والزماني الذي أنشأه وأبقاه عمل التلفظ.

وقد اخترتُ في هذا البحث متنًا لغويًّا قديمًا، هو شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي؛ لأطبّق فيه المشيرات الشخصية، وأقف عند أهم الدلالات اللغوية التي أشارت إليها، بأنواعها المختلفة، فنتوصل إلى نتيجة مفادها إمكانية تطبيق النظريات الغربية الحديثة على متون عربية قديمة، والأثر الذي تركته فيها ممَّا ينفع الباحثين والدارسين، في إتاحة فرصة جديدة من ألوان البحث العلمي الجديد الممزوج بالتراث القديم.

المشيرات الشخصية: أنواعها - دلالاتها

نُسبت المشيرات إلى حقل التداولية، لاهتمامها المباشر بالعلاقة بين القول وسياقه، فكلُّ فعلٍ لغوي لا يؤدي دوره بنجاح ما لم يعلم المخاطب قصد العبارة وإحالتها، وما لها من أثرٍ واضح في تكوين الخطاب وربطه بالسياق الذي يتفاعل معه، إذ نجدها عاجزة عن إعطاء معانٍ بمعزل عن السياق، وترتبط بعلقة قوية بمقاصد المتكلّم وأهدافه وحاله الاجتماعي، فالإنسان كائنٌ اجتماعي يصعب عليه العيش منفردًا، لذا فهو يحتاج إلى الآخر طبقًا لفطرته وطبيعته الإنسانية، عندها سيوظف ألفاظه في

بيان مقاصده، فـ(التلفظ هو النشاط الرئيس الذي يمنح استعمال اللغة طابعها التداولي)[1].

وحتى تتضح مقاصد المتكلّم والمعاني المطلوب إيصالها للسامع، كان لا بد من دراسة ما يطلقه المتكلّم من عبارات ومفردات داخل السياق، فضلًا عن زمان التكلّم ومكانه، فكلُّنا نعلمُ أنَّ المفردات والتعابير حال ابتعادها عن سياقها تصبح بلا فائدة ولا قيمة، لذلك جاءت التداولية ردًّا على البنيوية، التي ضربت بظروف الخطاب والمتكلّم عرض الجدار، ودرست النص مجردًا، فغاب الكثير وغمُض من مقاصد المتكلّم، ولعلَّه من المنطق القول إنَّ التداولية ليست محل عمل اللسانيين وحدهم فحسب، بل يمكن أن تكون مجال عمل علماء الاجتماع والنفس والمنطق والسياسة وغيرهم، فتتجاوز الأبحاث المتعلّقة بالمعنى والتواصل، وتطغى على موضوع الخطاب لتصبح نظرية عامة للنشاط الإنساني يحقُّ لأي باحثٍ سبر أغوارها والخوض فيها بحرية، شريطة تعيين الهدف المرجو[2].

ولما كانت اللغة (كلامًا محدَّدًا صادرًا من مُتكلّم مُحدّد بلفظ في مقام تواصلي مُحدّد لتحقيق غرضٍ تواصلي مُحدّد)[3]، وجدنا المنهج التداولي قد نجح في دراسته علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، وكيفية تعبير كل علامة لغوية عن قصدٍ محدّد، مع عدم إهمال السياق والمقامات المختلفة المنجز ضمنها أي خطاب، فتعدَّدت مقاصد المتكلّم وأهدافه التي استحضرها أثناء خطابه، بتعدّد العناصر السياقية، وهنا تُفرض عليه

ضوابط وقوانين معينة لا بد من أخذها بنظر الاعتبار، كي يحقق نجاح خطابه مع الطرف الآخر في عملية التواصل، بغض النظر عن تميّز هذا الطرف بحضور فعلي أم متخيَّل.

وربما يكمن إبهامها في كونها لا تدلُّ على غائب عن الذاكرة أو عن النظر الحسّي، أو قد لا يُفهم معناها إلّا عند الاستعمال، لذا وجب أن يكون التلفّظ بها في سياق يحضر فيه طرفا الخطاب حضورًا عينيًّا أو ذهنيًّا، ليتسنّى إدراك مرجعها.[٤] فهي إذًا أشكالٌ مرتبطة بالمقام ارتباطًا وثيقًا، فضلا عن ذلك، فإنَّ دورها لا يقف عند الإشاريات الظاهرة في السياق التداولي، بل يتجاوزها إلى الإشاريَّات ذات الحضور الأقوى، وهي المستقرَّة في بنية الخطاب العميقة عند التلفّظ به، وهنا تكون قد اكتسبت دورها التداولي في استراتيجية الخطاب؛ لأنَّ التلفّظ يقع من ذاتٍ معينة بسمات معينة، وفي زمان ومكان محددين، إذ إنَّها تذكيرٌ دائم للباحثين النظريين في علم اللغة، بأنَّ اللغات الطبيعية وضعت أساسًا للتواصل المباشر بين الناس وجهًا لوجه، وتظهر أهميتها حين يغيب عنّا ما تشير إليه، فيسودُ الغموض ويستغلق الفهم[٥]، لذلك يمكننا القول: إنَّ الخطاب الواحد تجتمع فيه على الأقل ثلاث إشاريات هي: (الأنا – الآن – الهنا)[٦].

وتشترك الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة بالإبهام، لذا وضعها القدماء تحت باب (الأسماء المبهمة) وفقًا لتصنيفهم النحوي، وهو ما رآه سيبويه (ت١٨٠هـ) والمبرّد (ت٢٨٥هـ) وغيرهما، لأنَّها

تقع على كل شيء، ولا تفصل شيئًا عن شيء من الموجودات[٧]، وبذا جمعا (الضمائر وأسماء الإشارة) تحت مفهوم الإبهام نظرًا لدلالاتها العامة، ولكنَّ سيبويه وضَّح في موردٍ آخر أنَّ الضمائر التي تنتمي إلى صنف الإشاريات بحسب المنظور التداولي، تكتسب معناها بوساطة السياق؛ إذ قال: (وإنَّما صار الإضمار معرفة؛ لأنك إنَّما تُضمر اسمًا بعد ما تعلم أنَّ مَنْ يُحدّث (وهو المخاطب) قد عرف من تعني وما تعني (أي القصدية)، وأنَّك تريد شيئًا يعلمه (أي الإفادة))[٨]، وهو ما يراه بنفنست، بأنَّها أشكالٌ فارغة من دون مضمون ما دامت لم تدخل في السياق، لكن هذه الأشكال تجد لنفسها محتوى انطلاقًا من لحظة تلفظ الشخص بها في مقام محدد[٩]، فالضميران (أنا) و(أنت) لهما دلالة في ذاتيهما على المتكلّم والمخاطب، والسياق هو الفيصل في الدلالة على أيِّهما المقصود. في حين تدخل ضمائر الغائب في الإشاريات إذا لم يعرف مرجعها من السياق اللغوي، وعندئذٍ يتكفّل السياق التداولي بمعرفة إشارة هذه الضمائر إلى مرجعها.

إنَّ هذه الدلالات أو العناصر أعلاه، إنَّما تلتقي في مفهوم التعيين أو لفت انتباه المتلقّي إلى موضوعها بالإشارة إليه، أي تعيّن جهة الخطاب ولفت الانتباه إلى حيث ينجز الملفوظ المرتبط بمعناه، والذي يتحدَّد في سياق الخطاب التداولي، لأنَّنا نعلمُ أنَّها خالية في ذاتها من أي معنى ودلالة، فهي (تقترن بفعل الإشارة إلى موضوع ما، وتنطبق على زمرة من الوحدات التركيبية

والعوامل الدلالية غير المنفصلة عن سياقات إنتاج الملفوظ)[١٠]، لذلك تعد مجالًا مشتركًا بين علمي الدلالة والتداولية، لأنَّها تقوم بوظيفة تعويض مدلولات الألفاظ والإحالة إليها[١١]، وللمشيرات أنواع يختلف أحدها عن الآخر، لأنَّها ألفاظٌ دالّة على عناصر غائبة حاضرة، حصرها ولفنسون بخمسة أقسام هي[١٢]:

١. المشيرات الشخصية، التي مثلتها الضمائر.

٢. المشيرات الزمانية، وتشمل ظروف الزمان.

٣. المشيرات المكانية، وتشمل ظروف المكان.

٤. المشيرات الاجتماعية، وتمثل العلاقة بين المرسل والمرسل إليه.

٥. المشيرات الخطابية، وتمثل التراكيب والأدوات.

أمَّا المشيرات الشخصية أو الضمائر، فهي أوضح العناصر الإشاريَّة الدالّة على الشخص، كضمائر المتكلم (أنا - نحن)، وضمائر المخاطب المفرد مذكرًا ومؤنثًا، (أنتَ - أنتِ)، والمثنى بنوعيه (أنتما)، والجمع بنوعيه (أنتم - أنتنّ)، وضمائر الغيبة مفردًا مذكرًا ومؤنثًا (هو - هي)، أو المثنى بنوعيه (هما)، أو الجمع بنوعيه (هم - هنَّ). ولهذه الضمائر مبانٍ وأحكام معروفة، من جهة الانفصال والاتصال، والعدد، والجنس، والإعراب ضمَّتها مصنفات النحو جميعها وتحدَّثت عنها. ويدخلُ النداء في مجموعة المشيرات الشخصية؛ لأنَّه (ضميمة تشير إلى مخاطب لتنبيهه أو توجيهه أو استدعائه [...] وظاهر أنَّ النداء لا يفهم إلّا إذا اتضح المرجع الذي يشير إليه)[١٣].

ويُعنى بالضمائر أو المرجعيات الشخصية، أسماء مبهمة تعبِّر عن: (المتكلّم والمخاطب والغائب)، المتقدّم ذكره من حيث اللفظ أو المعنى أو الحكم، سواء أكانت ظاهرة (متصلة أو منفصلة)، أم مستترة، ومن خلال السياق الذي ترد فيه هذه الضمائر نفهمُ أنَّ هناك إحالات صريحة ومباشرة تدلُّ على الأشخاص أو الأحداث أو الأشياء، أو قد يُحال بها على مرجع مستنبط استنباطًا من السياق النصي، أو على فحوى كلام سابق أو لاحق[١٤]. وأنَّ الذات المتكلّمة تدلُّ على المرسِل أو المتكلّم في السياق، لتمثّل محور الخطاب التداولي. ولأنَّ الضمائر كلّها لا تخلو من الإبهام والغموض، وتحتاج إلى ما يفسرها ويزيل غموضها، فقد فسر ضميري المتكلّم والمخاطب وجودُ صاحبهما وقت الكلام، في حين احتاج ضمير الغيبة لشيء يفسره ويوضح المراد منه؛ لأنَّ صاحبه غير معروف[١٥].

وتنقسم ضمائر الحضور إلى: متكلِّم هو مركز المقام الإشاري، وهو (الباث)، وإلى مخاطَب يقابله في ذلك المقام ويشاركه فيه، وهو (المستقبِل)، وكل مجموعة منهما تنقسم بدورها حسب الجنس والعدد إلى أقسامها المعروفة[١٦].

إنَّ علماءنا العرب القدامى درسوا الضمائر، وقسموها إلى متصلة ومنفصلة، وفي هذا يقول السكّاكي (ت٦٢٦هـ): (اعلم أنَّ الضمير عبارة عن الاسم المتضمّن للإشارة إلى المتكلّم، أو إلى المخاطب أو إلى غيرهما بعد سبق ذكره، هذا أصله، وهو - أعني الضمير -، ينقسم من حيث

الوضع: قسم لا يسوغ الابتداء به، ويسمّى: متصلًا، وقسم يسوغ في ذلك ويسمّى منفصلًا)[١٧].

وبذلك يتّضح التفاوت بين أنواع الضمائر، من حيث حاجتها لما يعرفها من عدمه، ويعود ذلك إلى سياق الكلام وزمانه ومكانه الذي جرى فيه الخطاب، فضلا عن ذلك أن ضمائر المتكلّم والمخاطب، يمكننا تعيينها مباشرة عن طريق السياق؛ لأنَّها تؤدي دور التواصل مع الآخر، على العكس من ضمائر الغائب، إذ لا يمكننا تعيينها؛ لأنَّها تمثل عددًا لا متناهيًا من الأفراد[١٨].

وعلى الرغم من وجود مراجع خارجية للضمائر إلّا أنَّها تتميّز بعدم الثبات، ويمكن تحديدها عن طريق السياق الذي ترد فيه، وبخاصة ضمائر المتكلّم والمخاطب؛ لأنَّ ضمير المتكلّم والمخاطب بطبعهما لا يحيلان إلى مذكور سابق، أو يتطلّب استعمالهما معرفة سابقة بالهوية بالنسبة إلى طرفي الاتصال[١٩].

ويُرتِّبُ ابنُ يعيش ضمائر الحضور -وهي التي تحيل على صاحب القول -، قائلًا: (فاعرف المضمرات المتكلّم؛ لأنَّه لا يُوَهِّمك غيره، ثم المخاطب والمخاطب تلو المتكلّم في الحضور والمشاهدة)[٢٠].

والضمائر الشخصية المشار إليها في كتب النحويين القدامى وعند الكثير من المحدثين بالضمير أو المضمر، هي ألفاظٌ غير قابلة للاشتقاق كنظيراتها من الإشارات والموصولات، كما تتميّز بتباين صيغها الصرفية. وإذا أردنا تصنيفها، جاز لنا ذلك إمّا بحسب دلالاتها الوظيفية المعنوية من حيث: إشارتها

إلى متكلّم أو مخاطب أو غائب، وإمّا بحسب تقدير محلّها الإعرابي من: رفع ونصب وجر، وإمّا بحسب: ظهورها في الكلام أو عدمه. وأمّا ضمائر الحاضر فلها الكفّة الأكثر حضورًا ووضوحًا، بين الضمائر الدالّة على شخص عند مستعمليها، ويؤيد ذلك قول ولفنسون: إنَّ (أوضح العناصر الإشارية الدالة على شخص person هي ضمائر الحاضر، والمقصود بها الضمائر الشخصية الدالة على المتكلم وحده، مثل: أنا، أو المتكلّم ومعه غيره مثل: نحن، والضمائر الدالة على المخاطب مفردًا أو مثنًى أو جمعًا، مذكرًا أو مؤنثًا. وضمائر الحاضر هي دائمًا عناصر إشارية؛ لأنَّ مرجعها يعتمد اعتمادًا تامًّا على السياق الذي تستخدم فيه)[٢١]. وبعبارة أخرى هي الضمائر التي تدل على موقع الذات من الموقف الكلامي، تكلّمًا وخطابًا وغيبةً[٢٢].

يتضح من ذلك أنَّ العناصر الإشارية عنده، تتمثل في الضمائر الشخصية الدالّة على المتكلّم والمخاطب والغائب، ولابد من وجودها داخل سياقٍ محدّدٍ؛ ليعرف معناها، عن طريق ربطها بمرجع تعود إليه، إذ إنَّها ذوات تخلو من المعاني لو استقلّت. وأنَّ لكل نوع منها وظيفته الخاصة التي يحتفظ بها، وهذا ما يكسب الضمائر أهمية؛ بصفتها نائبة عن الأسماء والأفعال والعبارات والجمل المتتالية، فقد يحلُّ الضمير محلَّ كلمة أو عبارة أو جملة أو عدة جمل؛ لصعوبة تحديد المرجع.

ويلحظ أيضًا، أنَّ ضمائر الحضور (المتكلّم والمخاطب)، يفسرهما وجود ما يشيران إليه وقت الكلام؛ ذلك

لأنَّ المتكلّم حاضر يتكلّم بنفسه، أو حاضر يكلّمه غيره، أمَّا ضميرُ الغائب فصاحبه غير معروف؛ لأنَّه غير حاضر ولا مشاهد، فلا بد لهذا الضمير من شيء يفسره ويوضح المراد منه، والأصل فيه أن يكون - في غير ضمير الشأن - متقدّمًا على الضمير، مذكورًا قبله ليبيِّن معناه ويكشف المقصود منه، فيجيء الضمير مطابقًا له، وهذا الشيء المفسّر هو مرجع الضمير[٢٣]. وأنَّ ضمائر الحضور التي هي ضمائر التكلّم مثل: (أنا - نحن - تاء الفاعل - ياء المتكلم - نا المتكلمين) -، وضمائر الخطاب مثل: (أنت- كاف الخطاب)، سمّيت بذلك؛ لضرورة حضور أصحابها وقت التكلّم، في حين لا نلمس ذلك الحضور مع ضمائر الغيبة كما لا يخفى.

والضمير: هو ما وضع لمتكلّم أو مخاطب أو غائب، تقدَّم ذكره لفظًا أو معنى أو حكمًا، وهو اسمٌ جامد غير متصرف، يكنَّى به عن الغائب والحاضر، والحاضر نوعان: مخاطب ومتكلّم، وكما عبر عنه ابن مالك في ألفيته عندما قال:

فما لذي غيبةٍ أو حضورِ

ك: أنت وهو سمِّ بالضميرِ[٢٤]

وهو مشتق من أضمر يضمر إضمارًا، إذا استتر وخفي، وأضمرتُ الشيء في نفسي: إذا أخفيته وسترته، فهو مضمر، وجاء على وزن (فعيل) بمعنى وزن اسم المفعول (مُضْمَر) كجريح بمعنى مجروح، وقتيل بمعنى مقتول، وغيرهما، ويرى النحويون أنَّ سبب تسميته بذلك راجع لكثرة الخفاء والاستتار، وأمَّا إطلاقه على البارز فهو من باب التوسع، أو

قد يكون لعدم صراحته كالأسماء المظهرة، إذ إنَّ المتكلّم باستعماله للضمائر يريد ستر الاسم الصريح بعدم ذكره[٢٥].

ويرى التداوليون أنَّ غاية ما يسعى إليه النحويون، هو البحث عن القواعد الشكلية التي لا بد منها لتأسيس أي نظام لغوي، مع عدم اهتمامهم بأنَّ اللغة أصلًا تتألَّف من الأقوال والخطاب القائم بين طرفي الخطاب في مقام ما، وزمان ما، ومكان ما. وهو ما يراه التداوليون الذين خالفوا فيه النحويّين، وجعلوه حجة عليهم. ولئن كانوا يسعون للبحث عن طرق مختلفة ومتنوعة للتواصل والفهم، من خلال التراكيب والبنى داخل الكلام، فقد بحثوا عن ذلك كلّه خارج الكلام، وذلك عبر العلاقات التي تربط بين المتخاطبين، والأطر التي يتم فيها التواصل، لذا عدّوا الضمير من الأدوات الرابطة لأجزاء النص، فهو يقوم مقام اللفظ الظاهر؛ ليُغني عن تكراره، ويصل الجُمَل بعضها ببعض، ويحيل ما هو لاحق على ما هو سابق، فيربط آخر الكلام بأوَّله، عندها يتسق النص وينسجم بترابط جمله وفقراته.

ونعلم أنَّ الجملة لسانيًّا ذات بنيتين: تركيبية ودلالية، وأنَّ التخاطب غير قائم على تبادل الجمل، بل على تبادل الأقوال، وما القولُ إلّا عبارة عن جملة تكتمل بالمعلومات التي نلحظها من المقام الذي قيلت فيه[٢٦]. ولما كان لكل كلمة في اللغة ما تحيل عليه من مدلول معين، نجد المشيرات لا توجد إلّا في ذهن المتكلّم باللغة، دون ارتباطها بمدلول معين، لذا كان لا بُدَّ من ارتباطها بمرجع تحيل عليه في

الخطاب المتلفظ به، مع مراعاة عدم ثباته، لتغيّره بحسب السياق الذي وردت فيه؛ لذلك قالوا في علّة إبهامها أنَّها لا تدل على غائب عن الذاكرة، أو عن النظر الحسي، بل إنَّ التلفّظَ بها لا بُدَّ من أن يكون في سياقٍ، يكون لأطراف الخطاب فيه حضور عينيّ أو ذهنيّ، لغرض معرفة مرجعها وتعيينه، وبذا تتضح المعاني، وتعرف مقاصد المتكلّم[٢٧].

فالذات المتكلّمة تدلُّ على المرسِل في السياق؛ لأنَّه كما نعلم قد تصدر عن المتكلّم الواحد خطابات عدة، حينها نلمس تغير ذاته المتلفظة على وفق تغير السياق الذي تلفظ فيه، وأنَّ محور التلفظ في الخطاب تداوليًّا هي الذات، فضلا عن ذلك، أنَّ مَنْ تغيَّر بتغيّر السياق هو مرجعُ الضمير لا معناه، لذا نجد الضمير (أنا) يحيل على المتلفظ، بغض النظر عن أنواعه وصوره، ولكن مع بقاء البحث عن الذات التي يرجع إليها الدال موضوع التلفظ. كما يشير الضمير (أنت) الى المتلقي للخطاب (المرسَل إليه)، حينها يتشكَّل الخطاب لتوفر طرفيه.

إنّ الضمائر لا تدلُّ على شيء معين إلّا بضميمة المرجع وتحقيق الحضور المكاني، فالضمائر بهذه الدلالة تكتسب وظيفتها، بكونها نائبة عن الأسماء (وإنَّما صار الإضمار معرفة؛ لأنَّك تُضمِرُ اسمًا، بعدما تعلم أنَّ مَنْ يُحَدّث قد عرف من تعني، وما تعني، وأنَّك تريد شيئًا تعلمه)[٢٨]، فالضمائر في سياق النص المكتوب معرفة، لإحالتها إلى المرجع، لكنَّها في سياق التلفّظ مبهمة عند عدم وجود قرائن محددة لها، وهكذا نجد استعمال

اللغة وتحقيق الفاعلية فيها، ما يعني الأثر الكبير والواضح الذي أدَّته الضمائر في تحويل اللغة إلى ممارسة ونشاط فردي بسبب الاستعمال، فنرى المتكلّم إنْ تحكّم باللغة وملَكَها وجعلَها من إمكاناته، نصب نفسه في مرتبة عالية ضمن العملية التخاطبية، واحتاج إلى مخاطب أمامه ليتبادل معه أطراف الحديث.(٢٩) لذا نجد أنَّ للضمائر أثرًا ملموسًا في تعيين مرجعها الخارجي، أو الذهني، على أساس أنَّها تؤدي وظائف عدة، منها: ترجمة الدلالات الغائبة في الخطاب، وبيان غرض المتكلّم، وقصديته للملفوظات، وتقوم بربط النصوص، واتساقها وانسجامها.

الضمائر الشخصية: أنواعها - تطبيقات عليها

ولو أنعمنا النظر في كتاب (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد المعتزلي، لوجدنا المشير المقامي الأول وهو (الضمير) بأنواعه، قد شغل مساحة كبيرة فيه؛ لأنَّ الشارح ممَّن أمسك بمفردات اللغة، وتمكَّن منها ليصوغها في نظام رائع، وفي ذلك أوصل رسالته للسامع الحاضر معه بكل سلاسة ويسر، لا بل حتى الغائب الذي سيفهم بلا شك مراد المتكلم بعد سماعه أو قراءته، وهذه أمثلة من الشرح، تعزز ما ذكرنا:

أوَّلًا: ضمائر المتكلّم:

أ/ الظاهرة: وهي نوعان متصلة ومنفصلة: فالمتصلة: (نا المتكلمين - تاء الفاعل - ياء المتكلّم)، والمنفصلة: (أنا - نحن: للمتكلّم ومعه آخر، أو معه مجموعة).

ب/ المستترة: وتشمل: المفرد بنوعيه - المثنى بنوعيه - الجمع بنوعيه.

ضمائر المتكلّم الظاهرة المتصلة:

يقول ابن أبي الحديد تحت عنوان: القول فيما يذهب إليه أصحابنا المعتزلة في الإمامة والتفضيل والبغاة والخوارج: (اتفق شيوخنا كافة رحمهم الله، المتقدّمون منهم والمتأخرون والبصريون والبغداديون، على أنَّ بيعة أبي بكر الصديق بيعة صحيحة شرعية، وأنَّها لم تكن عن نص وإنَّما كانت بالاختيار الذي ثبت بالإجماع، وبغير الإجماع كونه طريقًا إلى الإمامة).[٣٠]

في هذا النص برز الضمير المتصل (نا المتكلمين) في لفظتي (أصحابنا - شيوخنا)، والذي يصرح به ابن أبي الحديد بمذهبه الاعتزالي الواضح، عندما قال (أصحابنا المعتزلة)، الذي أحال على الجمع تارة وعلى التعظيم أخرى، على صاحب القول وانتسابه لشيوخه وأصحابه، ولعل في قوله هذا وفي غيره، ردًّا واضحًا على من نسبه إلى التشيع، والضمير هنا يحيل إلى المرسل (المتكلّم) الذي يتكلّم بألفاظ معينة ليعبّر عن مقاصده وأفكاره، ليحقّق هدفه المرجو؛ فنجده يشير إشارة بُعدية إلى اشتراكه مع أصحابه وشيوخه في العقيدة نفسها، بحكم أنَّه يعيش معهم في واقع واحد، قد يكون زمانيًّا أو مكانيًّا أو مذهبيّصا، وقد جاء الضمير المتصل (نا) الذي يشير إلى ذاتية المتكلّم بدلًا عن الضمير (نحن)؛ لتتحقق بذلك مقصدية المتكلّم وتأكيد ذاتيته، عن طريق حضور مضمون الخطاب في أذهان المخاطبين المتردّدين باستعمال هذا الضمير دون غيره، وذلك تبعًا لما يقتضيه المقام.

وقد اختلفوا في بيان دلالة

الضميرين (نا المتكلمين) والضمير (نحن)، إذ يرى (بنفنست) وجود تطابق بينهما عند الخطاب، وأنَّهما يدلّان على معنى واحد، في حين تخالفه (أركيوني) بقولها: ((نحن) لا يتطابق أبدًا مع (أنا) الجمع إلّا في حالات شاذة كحال المحفوظات والغناء الجماعي... وأنَّ توظيف (نحن) بمعنى (أنا) نادر جدًّا، يتوقف على إرادة المتكلّم).[٣١]

وبذلك نستدل على أنَّ الإشاريات على الرغم من كونها مبهمات، إلّا أنَّ لها أثرًا كبيرًا في بيان مقصديَّة المتكلّم، واستعماله لعنصر إشاري دون آخر، وأيّها يستعمل في مقام وسياق الكلام دون غيره، ليكون أكثر تعبيرًا عن ذاتيته وحضوره، وأكثر تعبيرًا وأثرًا في المتلقي.

ونرى أيضًا أنَّ ضمير المتكلّم قد عمل على ربط كلام ابن أبي الحديد بالمقام الخارجي. وهكذا يكون المتكلّم حين يملك اللغة ويتحكّم فيها، يجعلها من إمكاناته، وينصب نفسه في مرتبة عالية ضمن العملية التخطابية؛ لأنَّه الذات المحورية في الخطاب، ومركز المقام الإشاري[٣٢]، وهو ما تجسّد في شخصية الشارح لأنَّه لغوي وشاعر.

وهناك إشارة في كلام الشارح إلى مسألة عقائدية مهمّة في (الإمامة)، لابد من تسليط الضوء عليها بإيجاز، وهي محلُّ نزاعٍ واختلاف بين المذهبين الشيعي والمعتزلي، أعني مسألة تفضيل المفضول على الفاضل، ولكن (الفاضل) عنده له معنى آخر غير ما يراه غيره، كما قال: (والمراد بالأفضل أكرمهم عند الله وأكثرهم ثوابًا وأرفعهم في دار الجزاء منزلة)

[٣٣]. ولذا قال: (وأمَّا نحن فنذهب إلى ما يذهب إليه شيوخنا البغداديون من تفضيله [عليه السلام] وقد ذكرنا في كتبنا الكلاميَّة ما معنى الأفضل، وهل المراد به الأكثر ثوابًا أو الأجمع لمزايا الفضل والخلال الحميدة؟ وبيَّنّا أنَّه [عليه السلام] أفضل على التفسيرين معًا، وليس هذا الكتاب موضوعا لذكر الحجاج في ذلك أو في غيره من المباحث الكلامية لنذكره، ولهذا موضع هو أملك به)[٣٤].

ويبدو للباحث في هذا المقام، أنَّ الشارح لم يكن منصفًا في ترجيحه المفضول على الأفضل، وهي من أشهر المسائل التي انمازت بها فرقة المعتزلة؛ أولًا: لما لمقام الإمام علي (عليه السلام) من قدر عظيم ومنزلة لم تكن لغيره أبدًا، تعجز الكلمات وتقصر عن إدراك كنهه ووصفه، باتفاق الفريقين، فهو نفس الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله)، كما ورد في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٦١)، عندها خرج معه ولداه الإمامان الحسنان (عليهما السلام)، ونساؤه وهي مولاتنا الزهراء (عليها السلام)، ونفسه وهو أمير المؤمنين (عليه السلام)، كما أنه خليفة المسلمين وولي أمرهم بالتنصيب الإلهي، وبيعة الغدير شاهد على ذلك، عندما اجتمع الحُجّاج في حجّة الوداع، وكانوا أكثر من مئة وخمسين ألف شخص، لسماع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، حين أخذ يد الإمام علي

(عليه السلام)، ثم قال: «مَنْ كُنْتُ مولاه فهذا وليُّه، اللهمَّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه»[٣٥]، وهو حديث متواتر، يؤيد ذلك النص القرآني المبارك: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٧)، وغيرها من الآيات المباركة والأحاديث الشريفة الواردة بحقّه (سلام الله عليه)، التي نقلها الفريقان، واتفقت عليها الفرق الإسلامية!!

وثانيًا: لأنَّ المعتزلة حكّموا العقل، ونادوا به، واتخذوه منهجًا وشعارًا في بيان مسائلهم، وهو نفسه يرجح الأفضل على المفضول بطبيعة الحال، ولكن يبدو أنَّ أمرًا سياسيًّا قد حال دون إعمال العقل في ترجيح هذه المسألة، فرجَّحوا خلاف ما يقتضيه العقل، أو قد تكون الأسباب عاطفية بين حبٍّ ظاهري وبغضٍ دفين، أو غِيرة وتنافس أو نفاقٍ، أو لربما يعود لطهارة المولد من عدمه، فقد روي عن النَّبي (صلى الله عليه وآله) أنَّه قال لعلي بن أبي طالب (عليه السلام): «يا عَلِيُّ، لا يُحِبُّكَ إلّا مَن طابَت وِلادَتُهُ، ولا يُبغِضُكَ إلّا مَن خَبُثَت وِلادَتُهُ، ولا يُواليكَ إلّا مُؤمِنٌ، ولا يُعاديكَ إلّا كافِرٌ»[٣٦] فعطَّل الشارحُ دور العقل في هذه المسألة ورجَّح خلاف ما يقتضيه، وأثقل كاهله بالتماس معنى آخر للفظة (الأفضل)، فذهب بعيدًا ولم يوفق.

وتبرز ذاتية المتكلّم أيضًا باستعماله الضمير (ياء المتكلم)، وذلك عندما شرح عبارة أمير المؤمنين

(عليه السلام) في زهده عن الخلافة (وطويت عنها كشحًا)، قائلًا: (طويت عنها كشحًا أي قطعتها وصرمتها، وهو مثلٌ، قالوا: لأن مَن كان إلى جانبك الأيمن ماثلًا فطويت كشحك الأيسر فقد مِلتَ عنه، والكشح: ما بين الخاصرة والجنب. وعندي أنَّهم أرادوا غير ذلك، وهو أنَّ من أجاع نفسه فقد طوى كشحه، كما أنَّ من أكل وشبع فقد ملأ كشحه، فكأنه أراد أنِّي أجعت نفسي عنها ولم ألقمها)[٣٧].

ولو تأمَّلنا النص، لوجدنا الضمير (ياء المتكلم) في (عندي) وهو المشير الشخصي، المحيل إلى ذات المتكلّم، قد أعطى النص قوة وانسجامًا وترابطًا وتماسكًا، وذلك عن طريق الإحالة الداخلية القبلية، إذ لم يصرّح بذات المتكلّم في علم الخطاب، وهي مرجع غير لغوي، ويتضح المرسِل في بنية الخطاب العميق، عن طريق ممارسة التلفّظ الدالة عليه بصورة مباشرة، ممَّا يجعل حضور (الأنا) واردًا في كل خطاب، وأنَّ المرسل يعوّل على وجودها بالقوة في كفاءة المرسل إليه، ليتأوّل الخطاب فيما بعد تأويلًا مناسبًا باستحضارها في الذهن، فيكون الشارح حاضرًا في ذهن المتلقّي، من خلال حضور رأيه في توجيه قول أمير المؤمنين (عليه السلام) كما هو واضح.

ومن كلام له (عليه السلام) لأصحابه، قوله: «أَمَا إِنَّهُ سَيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي، رَجُلٌ رَحْبُ اَلْبُلْعُومِ، مُنْدَحِقُ اَلْبَطْنِ، يَأْكُلُ مَا يَجِدُ، وَيَطْلُبُ مَا لاَ يَجِدُ، فَاقْتُلُوهُ وَلَنْ تَقْتُلُوهُ، أَلاَ وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِّي، وَاَلْبَرَاءَةِ مِنِّي، فَأَمَّا اَلسَّبُّ فَسُبُّونِي؛ فَإِنَّهُ لِي زَكَاةٌ وَلَكُمْ

نَجَاةٌ، وَأَمَّا اَلْبَرَاءَةُ فَلاَ تَبَرَّؤوا مِنِّي؛ فَإِنِّي وُلِدْتُ عَلَى اَلْفِطْرَةِ، وَسَبَقْتُ إِلَى اَلْإِيمَانِ وَاَلْهِجْرَةِ»[٣٨]، فقال الشارح في بيانه: (... وكثير من الناس يذهب إلى أنَّه (عليه السلام)، عنى زيادًا، وكثير منهم يقول إنَّه عنى الحجاج، وقال قومٌ إنَّه عنى المغيرة بن شعبة، والأشبه عندي أنه عنى معاوية؛ لأنَّه كان موصوفًا بالنَّهَم، وكثرة الأكل، وكان بطينًا يقعد بطنه إذا جلس، على فخذيه)[٣٩]، و(ياء المتكلّم) في (عندي)، من المشيرات الشخصية المهمّة، التي تظهر ذات المتكلم، وباتصالها بالمشير المكاني (عند)، بإحالة قبلية في النص، كأن الشارح أراد لفت نظر المتلقي، إلى معنى الأنا والحضور والتمكّن والظرفية في بيان رأيه، بما عناه أمير المؤمنين (عليه السلام)، وهو معاوية، والذي أيَّد ذلك، مجموعة الصفات التي ذكرها في كلامه، إذ كانت مطابقة تمامًا لمواصفات معاوية، فزاد النص قوة وترابطًا وتماسكًا، ما أدَّى إلى بيان مقاصد المتكلّم ووضوحها، بكل سهولة، وهو يتحدَّث عن رأيه، ويبيّن ما يريده بكل قناعة؛ معلّلًا ذلك بقوله: (لأنَّه كان موصوفًا...)، وهنا تتضح العلاقة التواصلية ونجاحها، في التأثير على المتلقي، عن طريق دقة استعمال الشارح للمشير الشخصي (ياء المتكلّم).

• **ضمائر المتكلّم الظاهرة المنفصلة:**

يقول الشارح: (وأنا قبل أن أشرع في الشرح أذكر أقوال أصحابنا رحمهم الله في الإمامة والتفضيل والبغاة والخوارج)[٤٠]، نجد الضمير المنفصل الدال على المتكلّم المفرد (أنا)، يخبر عن الشارح وهو يتحدَّث عن منهجه

في الشرح، بأنَّه سيذكر أقوال أصحابه في موضوعات مختلفة كالإمامة والتفضيل والبغاة والخوارج، قبل شروعه في شرح مضامين كلام أمير المؤمنين (عليه السلام)، وكأنه تمهيد لما سيقول، وهو هنا بصدد الحديث عن مسائل عقائدية اختلفت فيها الفرق الإسلامية، فنجد ذاته حاضرة وبكل قوة، إذ يتصدَّى للخوض في مسائل مختلفة بين المسلمين لينتقل بعدها للشرح، ولما كان مدار حديثه عن الفرق الإسلامية، ثم شرح مفردات كلام أمير المؤمنين (عليه السلام)، وجد الباحث ذات المتكلّم ظاهرة، يعززها ضمير المتكلّم المستتر وتقديره (أنا) في الفعلين المضارعين (أشرع - أذكر)، وكلاهما يحملان دلالة الذات المتكلمة، ممَّا زاد النص قيمة وقوة وتأكيدًا، ذلك لأنَّنا نجد ترابط الألفاظ ضمن نص متماسك، على الرغم من تنوع الضمائر ووحدة دلالاتها.

ويستمر ابن أبي الحديد في التعبير عن ذاته ووجهة نظره، ولكن باستعمال ضميرٍ آخر يعبر عن ذاتيته وحضوره وهو ضمير المتكلّم المنفصل (نحن)، الذي يحتمل أن يعبر عن ذات المتكلّم وحده؛ إرادة التعظيم وعلو المنزلة وحب الظهور والتصدّي؛ لأنَّه ينتمي إلى مذهب آخر، أو إشارة إليه وإلى من يسير معه في مذهبه من أصحابه المعتزلة، ممَّن يؤمنون بتفضيل أمير المؤمنين (عليه السلام) على أبي بكر وغيره، إذ قال: (وأما نحن فنذهب إلى ما يذهب إليه شيوخنا البغداديون من تفضيله [عليه السلام]...)[٤١]، فالضمير (نحن) من أصناف

الإشاريات الشخصية الدالة على المتكلم الحاضر، ويدلُّ على المتكلّم والمخاطب، وهو ضمير حضور لوجوب حضور صاحبه وقت النطق به، ويؤيّد كلامنا هذا تقسيم الباحثة (روبين لاكوف) لهذا الصنف الإشاري على قسمين هما[٤٢]:

نحن الشاملة: التي تجمع أطراف العملية التواصلية (المرسِل والمرسل إليه)، اعتمادا على أساس مبدأ المشاركة بينهما في العملية التخاطبية، وتحقيق التضامن والتعاون بين طرفي الخطاب، لذلك أسماها (فاولر FAOWLER) بـ(نحن التعاونية)[٤٣]؛ لأن بنيتها العميقة تشمل العنصرين (أنا + أنتم = نحن)، أو (أنا + أنت = نحن)، وهو ضمير يصلح للواحد العظيم وللاثنين وللجماعة، فيؤدي دورًا تعاونيًّا أو يعبر عنه على الأقل وهو استعمال تداولي.

نحن القاصرة أو الحاضرة: وتقتصر على ذات المتكلم وحده دون إدخال عنصر المتلقي معه، وهذا النوع يدل على فخر المتكلّم والتأكيد على ذاتيته لدى المتلقي. ويبدو للباحث أنَّ كلا النوعين لهما حضور واضح في شرح النهج، وهو ما قصده الشارح ابن أبي الحديد، فتارة يعظم نفسه ويؤكد مقالته، وأخرى يشارك غيره بما يريد.

ولذلك كان استعمال المرسِل للضمير (نحن) دليلًا على استحضار الطرف الآخر إن كان غائبًا عن عينه، سواء من حيث دلالته على الجمع أو تعظيم المفرد. وهنا دلَّ الضمير (نحن) على التعظيم، وفي ذلك تصريح بموقفه الصحيح من أمير المؤمنين (عليه السلام) بلا تردّد، وما يؤكد ذلك استعماله الضمير

المستتر (نحن) في الفعل المضارع (نذهب)، ممَّا زاد ظهور الذات المحورية في الخطاب وهو المتكلّم، الذي تجلّى بأكثر من صورة باستعمال ضمائر المتكلّم المختلفة.

وعن قول الإمام (عليه السلام): «**بِنَا اهْتَدَيْتُمْ فِي الظَّلْمَاءِ وَتَسَنَّمْتُمُ الْعَلْيَاءَ...**»[٤٤]، يعلّق الشارح قائلا: (هذه الكلمات والأمثال ملتقطة من خطبة طويلة... ونحن نشرح هذه الألفاظ، لأنَّها كلامه (عليه السلام)، لا يشك في ذلك من له ذوق ونقد ومعرفة بمذاهب الخطباء والفصحاء في خطبهم ورسائلهم، ولأنَّ الرواية لها كثيرة...).[٤٥] والمتأمّل في دلالة المشير الشخصي (نحن) هنا، وهو الضمير المنفصل، يجد أنَّه قد عبَّر عن ذات المتكلّم وحده، ولم يرد الجمع مع غيره، لأنَّه صرّح هنا بتولّيه لشرح مفردات الخطبة، كونه عارفًا بأساليب الخطباء والفصحاء، وكيفية استعمالهم لمفرداتهم، ولمَّا حملت الخطبة زيادات وحذف من الشرّاح والرواة، رجَّح الشارح صحة سندها ونسبتها إلى أمير المؤمنين (عليه السلام)، معلّلًا ذلك بالأسباب التي ذكرها أعلاه، وهو السبب الذي دعاه لشرحها بدقة، والذي يعزز ذلك، الضمير المستتر (نحن) في الفعل المضارع (نشرح)، فضلًا عن ذلك أنَّه لغوي وأديب بارع، أحاط بمفردات اللغة العربية وطرق نظمها ودلالاتها، فبدت ذاتيته واضحة لا ريب فيها.

ممَّا تقدَّم نجد أنَّ الإشاريات الشخصية الدالة على المتكلّم، تعد من أقوى الإشاريات في الخطاب المعرفي؛ لأنَّ المتكلّم يعدّ (الذات المحورية في

إنتاج الخطاب، لأنّه هو الذي يتلفظ به، من أجل التعبير عن مقاصد معينة، وبغرض تحقيق هدف فيه، ويجسّد ذاته من خلال بناء خطابه باعتماد استراتيجية خطابية تمتد من مرحلة تحليل السياق ذهنيًّا والاستعداد له، بما في ذلك اختيار العلامة اللغوية الملائمة، وبما يضمن تحقيق منفعته الذاتية بتوظيف كفاءة للنجاح في نقل أفكاره بتنوعات مناسبة)[٤٦]، فالعملية التواصلية مرتبطة بالمتكلّم بالمرتبة الأولى، على أن لا يُغفل دور المتلقي في نجاحها، وهو الأمر الذي تحقّق عن طريق ثنائية العناصر الإشارية الشخصية: (المخاطب والمتكلّم)، وبذلك أدَّت هذه العناصر الإشارية الشخصية الوظيفة التي من أجلها وضعت اللغات الطبيعية في الأساس، وهي التواصل المباشر بين الناس، للتعبير عن المقاصد والغايات.

ب/ الضمائر المستترة:

يشير الشهري إلى النوع المستتر من الضمائر في العربية، وكيف أنَّها تتلازم مع طرفي الخطاب، قائلًا: (والضمائر المستترة في النحو العربي ضرب من الإشاريات التي تدرك الإحالة عليها من السياق، فلا يتلفّظ بها المرسل لدلالة الحال عليها، ويتطلّب البعض منها حضور أطراف الخطاب عينيًّا، في الأمر والنهي مثلًا؛ ففعل الأمر ينطوي على (أنت)، الذي يوجه إليه الخطاب، وبالتالي تنوعت الضمائر بين المستتر وجوبًا والمستتر جوازًا)[٤٧].

وتظهر الضمائر المستترة الدالة على ذاتية المتكلّم وحضوره رغم استتارها، لغايات ربما تكون

مقصودة، ففي قول الشارح: (وأنا قبل أن أشرع في الشرح، أذكر أقوال أصحابنا...)[٤٨]، نجد أنَّ ذاته تجسّدت في نوعين من الضمائر: ظاهر منفصل وهو الضمير (أنا) في بداية كلامه، ومستتر خفي في الفعلين: (أشرع وأذكر)، وهنا نجد أن ضمير المتكلّم المفرد الظاهر المنفصل (أنا)، قد ورد لينجز فعلًا إخباريًّا، حين قال: (وأنا قبل أن أشرع في الشرح...) وهو محور العملية التخاطبية، فأراد لفت نظر المخاطب لما يريد قوله له وإخباره به، أو قد يريد الفخر بنفسه، والتصدّي لشرح كلام رمز التشيع وإمام الشيعة (سلام الله عليه)، على الرغم من كونه من مذهب مخالف للتشيع، وهنا تأكيده واضح على السلطة الذاتية، والمكانة التي يتمتع بها بين أقرانه، من إتقانه لجملة من العلوم والمعارف المختلفة.

فالذاتية إذًا تشير إلى شخص المتكلّم والآثار التي يتركها في خطابه[٤٩]، في حين نجد أنَّ أهمَّ عنصر في معرفة مرجع الضمير المستتر، هو أن يكون المتكلّم حاضرًا وقت التلفظ بالخطاب.

وفي مورد آخر نجد الشارح قد نحا منحًى آخر في التعبير عن ذاته عن طريق ضمير المتكلم المستتر، فيعلّق معترضًا على شرح الراوندي لمفردة (الحسنان) في قوله (عليه السلام): «**حَتَّى لَقَدْ وُطِىءَ الحَسَنَانِ**»، بأنهما: (إبهاما الرجل)، قائلًا: (وهذا ما لا أعرفه)[٥٠]، هنا أحال الشارح إلى نفسه إحالة مقامية، عن طريق استعماله للضمير المستتر (أنا) في الفعل المضارع (أعرفه)، لأننا نعلم أنَّ ذات الشارح هنا تعد

مرجعًا غير لغوي، أي غير مصرّح به في عالم الخطاب وبيان مقصد الشارح، لأنَّه لا بد من أن تكون (الأنا) حاضرة في كل خطاب، فلا يحتاج الشارح إلى تضمينه في خطابه كل مرة، فهو ضمير حاضر وبقوة في كفاءته وحضوره، فضلًا عن كفاءة المتلقي وحضوره الذي يفهم مقاصد المتكلّم، لذلك نجد الشارح قد أعطى فسحة كبيرة للضمير، كي يعبّر عمَّا يشعر به من إنكاره واستغرابه لتفسير الراوندي، لأنَّ المعنى واضح جدًّا أنَّهما الإمامان الحسن والحسين (عليهما السلام)، وما حدث لهما بسبب انثيال الجموع الغفيرة لبيعة أبيهما أمير المؤمنين (عليه السلام)، فضلًا عن ذلك، جاء ضمير الغائب (الهاء) في (أعرفه) دالًّا على الغائب الذي يكون غائبًا عن المشاهدة، لكنّه حاضر في النفس والعقل؛ ذلك لأنَّ (الهاء لخفائها أولى بالغائب الذي أخفي وأبطن)[٥١]، فمرجع (الهاء) يعود إلى تفسير الراوندي للفظة (الحسنان)، وأنَّ واقع النص يشير إلى أنَّ مرجعية الضمير تعود لذلك؛ إذ إنَّ المرجع ذكر مرة واحدة، وعدل عنه باستعمال الضمير الدال عليه وذلك للاختصار والإيجاز.

ثانيًا: ضمائر الخطاب

يرى ولفنسون أنَّ العناصر الإشارية تنحصر في الضمائر الشخصية، التي تنقسم بدورها على قسمين هما: ضمائر المتكلم بأنواعها – وقد تقدَّم الحديث عنها – وضمائر المخاطب، مفردًا كان أو مثنى أو جمعًا للمذكر والمؤنث، وأنَّ كلا القسمين يتحدَّد معناهما من خلال السياق، لأنَّهما عناصر خالية من أي معنى

في ذاتها.[٥٢] وتعد العلاقة بين طرفي الخطاب (المتكلّم والمتلقي)، من أبرز العناصر السياقية التي تؤثر في تحديد استراتيجية الخطاب المناسبة واختيارها، لذا نجد الطرف الأول من طرفي الخطاب (المتكلم) يهتم جدًّا بمراعاتها؛ لأنَّه يعلم أنَّها السرُّ في نجاح العملية التواصلية بين الطرفين، وأنَّها أساس تحقيق أهدافه وغاياته، فالكلام بلا مستمع يعدُّ لغوًا كما لا يخفى [٥٣].

إنَّ المخاطب هو الركن الثاني من أركان التواصل اللغوي، ولربما يعد لب العملية التواصلية؛ لكون الخطاب قد أُنشِئ لأجله، لخلق حوار بين طرفين، وتعيين المعنى في شرح نهج البلاغة، يجعل المحلل والمتأمّل فيه، يجول بمخيلته بما يمتلك من أدوات متنوعة لغوية وغير لغوية، ويرى العلماء والباحثون أنَّ سبب ذلك يعود إلى أنَّ المبهمات لا تحيل إلى أشياء ثابتة في الوجود، كما سبقت الإشارة إليه؛ ولأنَّ المخاطب لم يكن دائمًا ذلك الشخص المادي الحاضر في المقام أمام القائل؛ لأنَّه قد يكون مفترضًا، أو قد لا يكون الشخص الحاضر هو المعني مباشرة بما يُقال، إنَّما جهة أخرى يُشار إليها ضمنيًّا، وقد يُخفي المرسِل القرائن المشيرة إلى المخاطب، وهذا قد يجعل تحديد من وجّه له الخطاب أمرًا صعبًا، فيلجأ المحلل حينئذٍ إلى النظر الشامل للخطاب، بجعل السياق المقالي والمقامي، وما يحيط به من ملابسات الموقف الكلامي، أسبابًا وأدواتٍ للوصول إلى قصد المتكلّم، فهو يعتمد أمورًا منها: (التحليل التداولي القائم على استعمال اللغة في

سياقاتها المختلفة، وغرض المتكلّم، ومكان إنشاء الخطاب وزمانه). فإن لم يدرك المحلل إلى من وجّه الخطاب، أدّى ذلك إلى التأويل البعيد عن قصد المتكلّم، وعدم الاهتداء إليه، في حال احتمال عودة الضمير على أكثر من مرجع، فيختلط على المتلقي حينها تعيين المرجع[٥٤].

لقد استعمل الشارح ضمير الخطاب بنوعيه: الظاهر وهو (المتصل (كاف الخطاب) والمنفصل (أنتَ))، والمستتر المقدر بحسب المقام، كما في قوله واصفًا عبادة أمير المؤمنين (عليه السلام): (وأمَّا العبادة فكان أعبد الناس وأكثرهم صلاة وصومًا، ومنه تعلّم الناس صلاة الليل، وملازمة الأوراد، وقيام النافلة، وما ظنّك برجل يبلغ من محافظته على ورده؛ أن يبسط له نطع بين الصفين ليلة الهرير، فيصلّي عليه ورده، والسهام تقع بين يديه، وتمر على صماخيه يمينًا وشمالًا، فلا يرتاع لذلك، ولا يقوم حتى يفرغ من وظيفته، وما ظنّك برجل كانت جبهته كثفنة البعير؛ لطول سجوده. وأنت إذا تأمّلت دعواته ومناجاته، ووقفت على ما فيها من تعظيم الله سبحانه وإجلاله، وما يتضمنه من الخضوع لهيبته، والخشوع لعزته، والاستخذاء له؛ عرفت ما ينطوي عليه من الإخلاص، وفهمت من أي قلب خرجَتْ، وعلى أي لسان جَرَت)[٥٥]، فقوله: (وما ظنك برجل (مرتين)- وأنت إذا تأملت...) في النص السابق، نجد اجتماع ضمائر الخطاب: كاف المخاطب وهو ضمير متصل، وضمير المخاطب المنفصل (أنت)، هذا الاستعمال

من جهة المرسِل ينم عن مراعاةٍ واهتمامٍ بطرف الخطاب الثاني، وهو (المتلقي)، الذي بوجوده تتم عملية التواصل بنجاح، لتحقيق الأهداف التي يطمح إليها المتكلّم، فليس من المعقول اقتصار الأمر على أحد الطرفين، ولا يخفى أنَّ للعناصر الإشارية الدالة على طرفي الخطاب، مهمَّة كبيرة لا يستغنى عنها داخل الخطاب، فنجد المخاطب (المتلقي) هو المشارك الثاني في صناعة الخطاب، يتأثر ويتفاعل مع رسالة المتكلّم. واستعمل الشارح ضمير المخاطب (أنت)، دلَّ على التذكير مرة والحضور أخرى، ويرى الدكتور تمّام حسان، أنَّ الضمير قسمٌ مستقل بذاته من أقسام الكلم، وأنّ الضمائر جميعها لا تخلو في ذاتها من إبهام وغموض في دلالتها؛ لأنَّ معنى الضمير الوظيفي هو الحاضر أو الغائب على إطلاقهما، فلا يدلُّ دلالة معجمية إلّا بواسطة هذا المرجع، وتقدّم هذا المرجع لفظًا ضروري للوصول لهذه الدلالة[٥٦].

ويبدو للباحث أنَّ الشارح غالبًا ما يتحاشى توجيه خطابه إلى شخص حاضر، ولعل ذلك راجع لرغبته في أن يشمل كلامه كل مستمع وقارئ، فتكتب له الديمومة والحياة على مرّ الأزمان واختلاف الأمكنة والمجتمعات، لأهمية المتحدَّث عنه، وهو أمير المؤمنين (عليه السلام)، ويلاحظ أيضًا أنَّ ضمائر الخطاب (الكاف - أنت) التي تشير إلى المخاطب، تؤدّي وظيفة تنبيهية وتأثيرية وتبليغية، فلا يمكننا إغفال التناغم الواضح بين طرفي الخطاب ووضوح مرجع الضمير، وهذا بدوره يسهم في بناء التواصل

اللغوي بين الجماعات اللغوية. ولعل ما يعزز قيمة المخاطَب ويؤكد أهميته، استعمال الشارح لتاء الفاعل المخاطَب، وهو الضمير المتصل، وذلك في الأفعال الماضية: (تأملتَ- وقفتَ- عرفتَ- فهمتَ)، إذ تتضح قيمته في أنه تحمّل مسؤولية القيام بتأمل الدعوات والمناجاة، والوقوف عند أسرارها، ومعرفة مدى الإخلاص في العبادة بهيبة وخشوع وخضوع، وفهم الصدق والإيمان الذي عمّر قلبه (سلام الله عليه)، فيكون المتلقي بذلك، قد شارك المتكلّم في نجاح العملية التخاطبية مشاركة فعالة وقيّمة، لذا نجح الشارح في بيان مراده، وسلط الضوء على ما أراد دون عنتٍ أو تكلّف.

فالمتكلّم هو الشارح، وهو منتج النص، وهو الذي اهتم بالمخاطب ولم يهتم بنفسه ليلفت نظر القارئ أو المتلقي إليه، والمخاطَب هو كل مستمع يسمع الخطاب، والخطاب هو بيان صفات الإمام علي (عليه السلام) العبادية، وما يقوم به في طاعة الله سبحانه، والحديث مفصلًا في وصف ذلك، إرادة الاهتمام والعناية وإظهار جانب من جوانب عبادته (سلام الله عليه)، فكان ابن أبي الحديد موفقًا في موازنته بين طرفي الخطاب، ممَّا زاد في تماسك النص وانسجامه ببراعةٍ ودقّةٍ واضحتين، الأمر الذي يجعلنا نعطي السياق أيضًا تلك القيمة الكبيرة، التي بها تتضح دلالات العناصر الإشارية المختلفة، حتى كأننا نقف أمام لوحة فنية، تتجسّد فيها حركات الإمام (عليه السلام) وهو يناجي ربه ويتعبد بكل خضوع وخشوع، من

خلال مشاركة الطرفين في ذلك.

وقوله في موضع آخر: (وأنت تعلم حال الأخبار الغريبة التي لا توجد في الكتب المدونة، كيف هي؟)[٥٧]، معلّلًا اختلاف الرواة في تفسير كلام عمر، عندما وصف بيعة أبي بكر بأنَّها (فلتة)، فمنهم من طعن به، وقال بأنَّها: (آخِرُ يومٍ من الشهر الذي يعدّه الشهرُ الحرامُ كآخر يوم من جمادى الآخرة، وذلك أنَّ الرجل يرى فيه ثأره، فربما توانى فيه، فإذا كان الغد، دخل الشهر الحرام ففاته، فيسمى ذلك اليوم فلتةً، والفلتة: الأمر الذي يقع من غير إحكامٍ، يقال: كان ذلك الأمر فلتةً مفاجأةً)[٥٨]، ومنهم من قال: إنَّها (آخر ليلة من كل شهر، ويقال: هي آخر يوم من الشهر الذي بعده الشهر الحرام،... وذكر صاحب الصحاح، أنَّ الفلتة: الأمر الذي يعمل فجأة، من غير تردد ولا تدبر، وهكذا كانت بيعة أبي بكر؛ لأنَّ الأمر لم يكن فيها شورى بين المسلمين، وإنَّما وقعت بغتة لم تمحص فيها الآراء، ولم يتناظر فيها الرجال، وكانت كالشيء المستلب المنتهب)[٥٩]، فكان حضور ضمير المخاطب المنفصل (أنت)، الذي أكَّده ضمير المخاطب المستتر في الفعل المضارع (تعلم)، دالًّا على المشاركة بين طرفي الخطاب، وقد أراد الشارح (المتكلّم) من استعماله ضمير المخاطب المنفصل (أنت)، مشاركته وبيان أهميته في توافق رأيهما بغرابةِ ما يروى من الأخبار والروايات، وعدم وجودها في الكتب، وهنا تبدو المشاركة واضحة والحث عليها وإبرازها أوضح، ولربما يعود ذلك؛ لتبرير موقف عمر من تعبيره عن

بيعة أبي بكر بعبارة (فلتة)، أو قد يكون استعماله الضمير للدلالة على التذكير، وعلى الحضور أيضًا، ذلك أنّ الضمائر قد تشير إلى الحضور أو الغياب.

ولذلك نجد لضمير المخاطب المستتر، حضورًا واضحًا أيضًا في شرح النهج، كما جاء في قول شارحه: (واعلم أنَّه لا يبعد أن يقال إنَّ الرضا والسخط، والحب والبغض وما شاكل ذلك من الأخلاق النفسانية وإن كانت أمورًا باطنة، فإنَّها قد تعلم ويضطر الحاضرون إلى تحصيلها بقرائن أحوال تفيدهم العلم الضروري، كما يعلم خوف الخائف، وسرور المبتهج، وقد يكون الإنسان عاشقًا لآخر، فيعلم المخالطون لهما ضرورةً أنه يعشقه؛ لما يشاهدونه من قرائن الأحوال، وكذلك يعلم من قرائن أحوال العابد المجتهد في العبادة، وصوم الهواجر، وملازمة الأوراد، وسهر الليل، أنه يتديَّن بذلك، فغير منكر أن يقول قاضي القضاة رحمه الله تعالى، إنَّ المعلوم ضرورة من حال عمر تعظيم أبي بكر، ورضاه بخلافته وتدينه بذلك، ...)[٦٠]، وقوله: (واعلم أنَّ الشيعة لم تسلم لعمر أن بيعة أبي بكر كانت فلتة، قال محمد بن هانئ المغربي:

ولكن أمرًا كان أبرم بينهم

وإن قال قوم فلتة غير مبرم

وقال آخر:

زعموها فلتةً فاجئةً

لا ورب البيت والركن المشيد

إنما كانت أمورا نسجت

بينهم أسبابها نسج البرود)[٦١]

ولا يزال الشارح منشغلًا بتبريراته لكلام عمر حول بيعة أبي بكر بأنَّها

فلتة، عن طريق القرائن النفسانية والأحوال التي كان عليها عمر عند نطقه بتلك العبارة، على أساس أنَّه معروفٌ بتعظيمه واحترامه لأبي بكر، و(أنَّ الإنصاف أنَّ عمر لم يخرج الكلام مخرج الذم لأمر أبي بكر، وإنَّما أراد محض حقيقتها في اللغة)[٦٢]، ألا وهو معنى: الأمر الذي يحدث فجأة من غير تردد ولا تدبر. وقد جاءت صيغة الأمر في الفعل (اعلم) مرتين؛ لأن الشارح أراد الجديَّة في إشراك المخاطب، الذي كان ضميرًا مستترًا تقديره (أنت)، لأنَّه بصدد المدافع عن عمر، والمصحح لمعنى (فلتة) من بين جملة الدلالات التي حملتها، كما ذكرت كتب اللغة، فأراد بذلك تزكية طرف الخطاب الثاني وهو (المخاطب - المتلقي) الذي يقف أمامه ويستمع إليه، فيوافقه على ما تبنّاه من معنى، وبذا يكتسب النص الشرعية والقبول، لاتفاق طرفي الخطاب في معنى واحد، فيفض النزاع بسبب اختلاف الآراء ووجهات النظر، على أنَّ كل منصف ذي حِجى، لا ينكر أنَّ بيعةَ أبي بكر كانت فلتةً فعلًا، بمعناها اللغوي الدقيق، الذي ذكر سابقًا، بل إنَّ أمير المؤمنين (عليه السلام)، عبَّر عنها خير تعبير بقوله في خطبته الشقشقيَّة: (أرى تراثي نهبًا)، فما حكومة أبي بكر إلّا تصرُّف بإرثٍ منهوب!!

ممَّا تقدَّم تتضح مكانة الإشاريات وحضورها المميّز في اللغات جميعًا، لذلك تعد ركيزة أساسية في اللغة لا يمكن تجاوزها أو إغفال دورها؛ لأنَّها تعمل على تحقيق التواصل والتبليغ بين أطراف التّخاطب، وتحيل إلى موضوعات قد سبق التطرق إليها

بين المتخاطبين، تجنّبًا للتكرار وتحقيقًا للإيجاز وعدم الإطناب، كما أنَّ فاعلية التواصل ترتبط بدورها في الإحالة إلى موضوعات ذات مرجعية معلومة بالنسبة إلى أطراف التواصل[٦٣]. ولأنَّ هناك توافقًا فكريًّا وثقافيًّا وتواصلًا واضحًا بينهما، ما عزز وصول الرسالة للمخاطب بلا تعثر.

ثالثًا: ضمائر الغيبة

ضمير الغائب (هو) من العناصر المهمة في الخطاب، ويسمَّى الضمير الغيبي أو غير الشخصي، وصاحبه غير معروف؛ لأنَّه غير حاضر، لذلك يحتاج إلى ما يفسره ويوضح المراد منه، ويتوجب أن يكون متقدّمًا على الضمير، مذكورًا قبله؛ وذلك ليبيّن معناه ويكشف المقصود منه، عندها يأتي الضمير مطابقًا له، وهذا الشيء المفسِّر يسمى مرجع الضمير[٦٤]، وأمَّا وظيفته التي يقوم بها فتتحدَّد وفقًا للسياق الذي ذكر فيه، بحيث نجده يربط السابق باللاحق، ويقدّم له المدلول الذي يبحث عنه المتلقي؛ لفهم مراد المتكلّم والتأثر به، ويقوم ضمير الغائب بإيصال المعلومة للمتلقي بلا شك، لأنَّ هذه الضمائر هي التي تحدّد ظروف النص المتغيّرة، وشخصياته ومرجعياته، ودورها الكبير في بنية النص الداخلية الزمانية والمكانية[٦٥]، وهو الشخصية الثالثة والعنصر الأساس في الخطاب، ويسمّيه جون سيرفوني بـ(اللا شخص)، ولكن لا يمكن للضمير أن يعبّر عن (اللا شخص)، بحيث لا يظهر إلّا إذا أراد المتكلّم ذلك، تقول أوريكيوني (Orecchioni): (إنَّ التصريح القائل إنَّ الضمير (هو) تكمن وظيفته في

التعبير عن اللا شخص، يبدو غير صحيح تمامًا، إنَّما يكون ذلك في بعض الأساليب التي يرغب فيها المتكلّم تحديد طبيعتها)[٦٦]، فالضمير الغيبي (هو)، لا يختلف عن ضمائر التكلّم والخطاب، ولا يمكن تحديد وظيفته خارج أفعال الكلام حسب مانغونو (Mainguenau)؛ لأنَّ السياق اللغوي هو الذي يسمح بترجمته، وربطه بسابقه، فيقدّم له مدلولًا، الشيء نفسه بالنسبة إلى (أنا) و(أنت) اللذين يفتقدان للمرجعية، في حالة فقدان الاستعمال الواقعي لهما[٦٧]، ويوصف ضمير الغائب بأنَّه الشكل الفارغ أو الضمير الذي لا يحيل على إنسان، لأنَّه ضميرٌ يحيل على شيء واقع خارج التخاطب، ولكنَّه ضمير لا يوجد ولا يتخصص إلّا في تقابل مع ضمير المتكلم (أنا)، الذي يعينه عندما ينطق به غير شخص، لكنَّه الشكل الذي يتخذ قيمته من خلال كونه جزءًا منزويًا من خطاب يتلفظ به (أنا)[٦٨].

ويبدو للباحث أنَّ عدم تصريح المتكلّم (منتج النص)، بذكر اسم المرجع المقصود، والاكتفاء بالإشارة إليه بضمير الغائب؛ عائد لسلطته ومكانته الاجتماعية، فهو الشارح الذي أتقن علوم اللغة العربية والفنون الأخرى، وأحاط بتفاصيلها، وهو الذي يرى أنه الوحيد القادر على شرح نهج البلاغة دون غيره، وهو الأفضل من بين الشرّاح، فتمكَّن بذلك من اختيار الاستراتيجية التخاطبية التي تناسب مكانته الاجتماعية، كما يراعي موقع المخاطب، والعلاقة التي تربط بينهما. لذلك نراه قد وظَّف العنصر

الإشاري الدال على الغائب بكل أنواعه: الضمير المستتر في الأفعال الماضية والمضارعة وأفعال الأمر، والضمير المتصل بمختلف الألفاظ: (الأفعال، الأسماء، أشباه الجمل)، وكذا الضمير المنفصل بأنواعه، كما سيأتي، وتجدر الإشارة إلى أنَّ الشارح انتبه إلى النوع والجنس عند تحديده للضمير المناسب، فاستعمل ضمير الغائب بكثرة، ليدل على اهتمامه بالتفسير والشرح والتحليل، فهي جميعًا ضمائرُ أسهمت في اتساق النص وانسجامه، لذا نراه قد وظف ضمائر الغيبة، باختلاف أنواعها في شرحه، وفقًا للدلالات التي قصدها، وأهمية ذلك تُكمن في السياق الذي وردت فيه، فقال في بيان حديثه عن فن المقابلة بين الألفاظ والجمل، - وهو فن بلاغي زخر به النهج كما هو واضح من عنوانه -: (وأمَّا مقابلة الجملة بالجملة، في تقابل المتماثلين، فإنَّه إذا كانت إحداهما في معنى الأخرى، وقعت المقابلة، والأغلب أنَّ تقابل الجملة الماضية بالماضية، والمستقبلة بالمستقبلة. وقد تُقابل الجملة الماضية بالمستقبلة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ (سبأ: ٥٠)، فإنَّ هذا تقابل من جهة المعنى؛ لأنَّه لو كان من جهة اللفظ، لقال: (وإن اهتديت فإنَّما اهتدي لها). ووجه التقابل المعنوي، هو أن كل ما على النفس فهو بها، أعني كل ما هو عليها وبال وضرر؛ فهو منها وبسببها؛ لأنَّها الأمَّارة بالسوء، وكل ما لها ممَّا ينفعها؛ فهو بهداية ربِّها وتوفيقه لها)[٦٩]، إنَّ المتأمل في نصِّ الشارح

هذا، يجد هيمنة الضمير الغائب بأنواعه وصوره، متصلًا ومنفصلًا ومستترًا، ماثلة بكل وضوح، من خلال المفردات: (فإنه - إحداهما - لأنه - هو - فهو - بها - هو - عليها - فهو - منها - بسببها - لأنها - لها - ينفعها - فهو - ربّها - توفيقه - لها)، واللافت للنظر أنَّه قد يصعب على المتلقي معرفة عائدية ضمائر الغيبة على أصحابها، وذلك لاحتمال تعدّد مرجعها، فيتوهَّم معنى غير مقصود، ولكنَّ المتأمل في النص عن عناية واهتمام وتقارب بينه وبين صانع النص (المتكلّم)، يصل إلى دلالات الضمير بسهولة، فدلالة ضمير الغائب المتصل المفرد (الهاء) في (فإنَّه)، تعود إلى التقابل، ودلالة ضمير الغائب المفرد المذكر المتصل (هو) في (لأنَّه)، تعود إلى التقابل، ودلالة ضمير الغائب المفرد المنفصل (هو)، تعود إلى وجه التقابل، ودلالة ضمير الغائب المفرد المنفصل (فهو)، تعود إلى الضرر الذي يلحق النفس، ودلالة ضمير الغائب المفرد المتصل المؤنث (ها) في (منها وبسببها)، تعود إلى النفس المتضرّرة، والأمر نفسه مع باقي الضمائر المتصلة والمنفصلة في دلالاتها على النفس، وأمَّا دلالة الضمير المنفصل (فهو)، في قوله: (وكلُّ ما لها ممَّا ينفعها فهو بهداية ربّها...)، فيعود إلى الخير الصادر من مصدر الخير المطلق، وهو الحق سبحانه وتعالى، الذي يعود بالنفع والفائدة على تلك النفس في (ينفعها، ربّها)، التي نالت حظًّا من التوفيق

والهداية الإلهيين.

أسماء الإشارة:

تقدَّم سابقًا أنَّ الضمائر تحدّد مشاركة الشخوص حضورًا أو غيابًا، وأمَّا أسماء الإشارة، فإنَّها تحدّدها مواقعها في الزمان والمكان داخل المقام الإشاري، ولا تُفهم إلّا إذا رُبطت بما تشير إليه؛ فلهذا تصنّف ضمن الحضور؛ لأنَّها تُحيل على حاضر وقت الكلام، كما تدلُّ على استحضار الذوات أثناء الخطاب[٧٠]، وقد عرّفها التداوليون بأنَّها: (وحدات خطابية تربط اللغة بالواقع الخارجي، وتثبت أنَّ اللغة ليست نظامًا منغلقًا على ذاته يحكمه منطق داخلي، وهي في تحليل الخطاب والنظريات اللسانية النصية، أدواتُ ربطٍ تسهم في اتساق النص وتماسك الخطاب بفضل دورها العائدي)[٧١]، أو هي: (علاقة بين اللفظ وما يشير إليه في المقام المستخدم فيه)[٧٢]، ويراد منها تلك العناصر اللسانية التي يلزم مصاحبتها حركة الإشارة الدالة على التعيين، عندها ينتبه المتلقي لما تشير إليه تلك المشيرات، فيفهم المقاصد ثم يتأثّر.

نفهم من ذلك أنَّها أدوات ربط بين الألفاظ والواقع، ولكن هناك قسم من الباحثين ذهب إلى عدّها من المشيرات الشخصية، مثل الدكتور تمَّام حسَّان، الذي أطلق مصطلح (الضمائر) على: (ضمائر الأشخاص وأسماء الإشارة والموصولات)[٧٣]، فهي إذًا عناصر إشارية تتصف بقدرتها على الإشارة إلى الأشخاص والأشياء، فضلًا عن الإشارة إلى الزمان والمكان، وذلك بحسب معطيات الأبعاد التداولية في أي نصٍ

أو خطاب، لذا عُدّت أحد أقسام المشيرات الشخصية.

وأمَّا اسم الإشارة (هذا)، المشير الى شرح الراوندي للفظ (الحسنان)، فقد وظَّفه ابن أبي الحديد توظيفًا واضحًا من حيث دلالته على القرب، فجاء للتوكيد أو ربما للفت الانتباه؛ وذلك لغاية في نفسه، أو قد يقصد من ورائه تمرير رسالة مبطنة ومثقلة بالدلالات المتنوعة التي تفهم عن طريق السياق، وذلك باختلاف ثقافة المتلقي ومستواه الفكري، فقد كان كثيرًا ما يعترض عليه ويناقش آراءه، مسوغًا ذلك بقوله في مقدّمته: (ولم يشرح هذا الكتاب قبلي فيما أعلمه إلّا واحد، وهو سعيد بن هبة الله بن الحسن الفقيه المعروف بالقطب الراوندي، وكان من فقهاء الإماميَّة ولم يكن من رجال هذا الكتاب، لاقتصاره مدة عمره على الاشتغال بعلم الفقه وحده، وأنّى للفقيه أن يشرح هذه الفنون المتنوعة، ويخوض في هذه العلوم المتشعّبة! لا جرم أنَّ شرحه لا يخفى حاله عن الذكي، وجرى الوادي فطم على القرى، وقد تعرّضت في هذا الشرح لمناقضته في مواضع يسيرة اقتضت الحال ذكرها، وأعرضت عن كثير ممَّا قاله، إذ لم أرَ في ذكره ونقضه كبير فائدة)[٧٤]، لذلك تختلف القراءات وتتقاطع الدلالات من شخص لآخر، بدليل تفسير الراوندي بأنَّهما: (إبهاما الرجل)، في حين دلالتهما على الإمامين (عليهما السلام)، أوضح من الشمس في رابعة النهار!!! فهي مختلفة عند الشرّاح على وفق ما يرون ويجتهدون.

ولا ننكر أنَّ الشارح قد نجح في

تقرير حالته المستغربة، جريًا على المقام الذي أشار إليه في النصِّ أعلاه، باسمي الإشارة (هذا - هذه)، إذ قال: (هذا الكتاب) مرتين، و(هذا الشرح) مرة، و(هذه الفنون) و(هذه العلوم) مرة لكل عبارة، وقد أراد في عبارته الأولى: (لم يشرح هذا الكتاب قبلي...) الإشارة إلى كتاب (نهج البلاغة)، لأنَّه بصدد شرحه وبيان مفرداته، قاصدًا الدلالة القريبة للكتاب الذي بين يديه، وكأنَّه يريد قرب مفرداته ودلالاته عنده؛ لأنَّه لغوي وأديب، قد تمكَّن من اللغة، ولمَّا كان كتاب (نهج البلاغة) كلامَ إمام الفصاحة والبيان (عليه السلام)، نقرأ ما وراء السطور أنَّ الشارح يرى نفسه متمكّنًا من شرح النهج، وقادرًا على تفكيك عباراته؛ لأنَّه متخصص في علوم اللغة العربية، فظهرت ذاتيته وحضوره باستعماله اسم الاشارة (هذا)، ولعلَّ ما يؤكّد كلامي، عبارته اللاحقة عن الراوندي: (وكان من فقهاء الإماميَّة، ولم يكن من رجال هذا الكتاب، لاقتصاره مدة عمره على الاشتغال بعلم الفقه وحده، وأنّى للفقيه أن يشرح هذه الفنون المتنوعة، ويخوض في هذه العلوم المتشعّبة!)[٧٥]، فنجده يستغرب من الراوندي الفقيه شرحه لكتاب (نهج البلاغة)، معلّلًا ذلك بتنوع العلوم وتشعّبها، والمعارف والفنون التي ضمّها النهج، ولكون الراوندي متخصصًا بعلم الفقه وحده، جعله ليس من أهل هذا الكتاب بحسب تعبيره.

فضلًا عن ذلك، نجده قد استعمل اسم الإشارة (هذه) في الموضعين المذكورين آنفًا، للدلالة

على قرب هذه العلوم والفنون وحضورها في الكتاب، وأنَّه فقط من فهمها وأحصاها وأحاط بها، مبالغة منه في إبراز حضوره وذاتيته وتمكّنه وسعة علمه، وأنَّه قد امتلك دلالاتها وسبر أغوارها وحده، ونفى ذلك عن غيره، ولا يخفى أنَّ ما يؤيد ذلك دلالتي اسمي الإشارة هنا للقرب بكلا النوعين، المفرد المذكر (هذا) الذي يتألف من الهاء الدالة على التنبيه بإضافة (ذا) مفتوحة دالة على المذكر، والمفردة المؤنثة (هذه)، التي تتألف من (ذي) مكسورة دالة على المؤنث، فإنَّ هذا التبدّل الصوتي بين الحركات يمثل قيمة دلالية فارقة بين التذكير والتأنيث، كما أن (هذي) صارت في الوقف (هذه)، وبقي هذا الاستعمال متداولًا حتى يومنا هذا. إنَّ هذا التنوع في استعمالها يكشف عن خيال الشارح، وانتقاله بحرية من لفظة لأخرى، في النص الواحد، ليدل على امتلاكه لتوظيفها أينما شاء وبراعة، ولذا نجد تماسك الخطاب، واتساق مفرداته وعباراته واضحًا على الرغم من تنوع تلك المشيرات، فهي ألفاظ لها دورها العائدي في الإحالة على السابق، وربط القريب بالبعيد، ممَّا يجعل النص كلًّا متماسكًا مترابطًا واضحًا، يفهمه المتلقي بسهولة وبلا أدنى جهد.

نفهم ممَّا تقدّم أنَّ لأسماء الإشارة وظائفَ مختلفة ومتنوعة كالتعيين والتأشير، وبيان مكانة الإحالة المقامية والنصية، وبيان المشار إليه قربًا وبعدًا، وتأكيد قيمة الحضور والغياب، فضلًا عن الاهتمام بالوظيفة الذاتية والموضوعية، وأنَّ مرجعها لا يتحدّد ما لم يكن طرفا

الخطاب حاضرين عند التلفّظ، ليتحقق التواصل بينهما، وتصل رسالة الباث إلى المتلقي بسهولة ووضوح، وهو الغاية من المقصود بالخطاب بين طرفيه.

النداء:

يمثّل النداءُ قرينة لفظية تحمل سمة التخاطب[٧٦]، فتقرّب بذلك المنادى، أو بالأحرى، تؤهله لأن يكون مخاطبًا؛ إذ يصرّح المتكلم بتعيين المنادى مخاطبًا بتوجيه القصد إليه[٧٧]، أي أنَّه توجيه لتحفيز المرسَل إليه لردة فعل تجاه المرسِل، ويراد منه استدعاء وتنبيه المخاطب بأحد أدوات النداء الآتية: (يا – الهمزة – أي – أيا – هيا)، ولا يفهم معنى النداء ما لم يتضح المرجع الذي يشير إليه في الخطاب، أسوة ببقية المشيرات، وتُعد أداة النداء (يا) هي الأشهر والأكثر استعمالًا من بين أخواتها، فيُنادى بها القريب والبعيد، ويراها التداوليون إحدى أدوات التخاطب الخاصة بالعملية التواصلية؛ لأنَّها تجسد الحلقة التخاطبية[٧٨].

ويستعمل المنادي (المتكلّم) هذا الأسلوب؛ لتوجيه الخطاب للمنادى (المتلقي)، فهو المراد أصلًا لغرض معين، ويتوصل إلى القصد بالمقام، وقد يُراد بالنداء غير المخاطَب، فيقوم النداء بوظائف تواصلية وتبليغية، تدرك بإدراك قصد منشِئ الخطاب، وحال المخاطَب. وقد لا يشير النداء إلى أيّ مرجع، بل يأتي به المتكلّم لغرض التنبيه[٧٩]، ومن ثَمَّ نجد الاختلاف في وظائف النداء منقسمًا بين التنبيه والتوجيه، اللذين يقتضيان الحضور والاستدعاء، الذي يلزمه غياب المنادَى ومفارقته

المنادِي، في حين نجد الدكتور محمود نحلة قد جمع بين الوظائف الثلاثة للنداء، وهي: التنبيه والتوجيه والاستدعاء، فجعلها متساوية إزاء تحديد إشاريته[٨٠]، غير أنَّ الباحثة نورة سيد أبو المجد محمد ترى أنَّ ثمَّة فرقًا بين الوظائف الثلاث، في تحديد ما يعد من النداء إشاريًّا، وهما وظيفتا التنبيه والتوجيه، أمَّا الاستدعاء؛ فلضرورة غياب المنادى المستدعى، يخرج عن كونه شبيهًا بالمخاطب، فلا يعد حينذاك إشاريًّا، ومثله في الخروج من الإشاريات، ما ينادى مجازًا ممَّا لا يتوقع استجابته[٨١].

وقد يأتي النداء لبيان القرب المكاني أو النفسي بين طرفي النداء، أو ليحفز المنادى ويؤثّر فيه؛ لذا تُعدُّ الإشارة في النداء إشارة لفظية، يترتب على أثرها التواجه بين المتكلّم والمتلقي، أي أنَّ ذلك التواجه في إشارة النداء، لا يحصل إلَّا بعد حدوث الإشارة اللفظية[٨٢]. وقد يعين المنادى باسمه توطئة لمخاطبته، أو ينادى بكنيته، أو بوصفه، تارة بذكر أداة النداء، وأخرى بحذفها.

ومثاله ما ورد في تعليق الشارح ابن أبي الحديد على خطبة أمير المؤمنين (عليه السلام) المعروفة بالشقشقية: «**فَيَا عَجَباً بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لآِخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ**»[٨٣]، قال: (قوله (عليه السلام): فيا عجبًا، أصله: فيا عجبي، كقولك: يا غلامي، ثم قلبوا الياء ألفًا، فقالوا: يا عجبا، كقولهم: يا غلاما، فإن وقفت، وقفت على هاء السكت، فقلت: يا عجباه ويا غلاماه، قال العجب منه، وهو يستقيل المسلمين من الخلافة أيَّام حياته، فيقول:

أقيلوني، ثم يعقدها عند وفاته لآخر، وهذا يناقض الزهد فيها، والاستقالة منها)[٨٤]، واستعمال الشارع لأسلوب النداء هنا، بأشهر أداة وهي (يا)، لم يرد به نداء المنادى ليقبل عليه؛ وليخبره بما يريد، بل أشار المشير المقامي هنا إلى التنبيه والدهشة والاستغراب، من تولية أبي بكر لعمر بعد وفاته، ليليه في الخلافة، بعد أن سمعوه يقول: أقيلوني فلست بخيركم، مظهرًا عجزه عن إدارة شؤون الدولة وضعفه في قيادة الأمة، فهو ليس بخيرهم، والمعروف أنَّ (يا) تستعمل لنداء شخص معين، لغرض يقصده المنادي، ولكن بالاستعمال اللغوي قد يتغيّر مقصود النداء السابق ذكره، فينتقل المعنى الظاهر إلى المعنى الضمني، طبقًا لمراد المنادي وحال المتلقي، حينئذٍ سيتغير الغرض التواصلي الذي حاول المتكلّم إنجازه بالنداء؛ لأنَّ غرض الخطاب يتحدد بوسائل داخل النَّص (لغوية أساسًا)، ووسائل خارج النص معيَّنة (سياقية)، وهو ما يراه الباحث، في أنَّ أداة النداء خرجت للتنبيه والتعجب، وليس لنداء شخص معين، بقرينة لفظية بعدية في السياق، وهي لفظة (عجبًا) المصدر، التي أعطت هذا المعنى لأسلوب النداء، وهو غرضٌ مجازي من أغراض النداء، التي يفهمها المتلقي من سياق الكلام، فكان حضور المشير المقامي (أسلوب النداء) هنا واضحًا، أدى دوره في نجاح العملية التواصلية بين طرفي الخطاب لتصل الرسالة وتفهم المقاصد.

ويعلّق الشارح على من يقول بعبادته سبحانه في الأزل، قائلًا:

(اعلم أنَّ المتكلمين لا يطلقون على البارئ سبحانه أنَّه معبود في الأزل، أو مستحق للعبادة في الأزل، إلّا بالقوة لا بالفعل؛ لأنَّه ليس في الأزل مكلف يعبده تعالى، ولا أنعم على أحد في الأزل بنعمة يستحق بها العبادة، حتى أنَّهم قالوا في الأثر الوارد: يا قديم الإحسان، إنَّ معناه: أنَّ إحسانه متقادم العهد، لا أنَّه قديم حقيقة، كما جاء في الكتاب العزيز: ﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾، أي الذي قد توالت عليه الأزمنة المتطاولة)[٨٥]، وردت (يا) النداء في قوله: (يا قديم الإحسان)، لتشير إلى معنى نداء المنادى القريب البعيد، وهو الباري جلّت قدرته، ولكن ليس بذكر اسمه، بل بذكر إحدى صفاته، وذلك لأنَّ هذه الأداة تستعمل لنداء القريب تارة، والبعيد أخرى، فكأن المشير المقامي هنا، يريد الدلالة على معنيين متضادّين، هما:

القرب من نفس المؤمن، وأنَّه تعالى موجود معنا دائمًا، ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١١٥)، والبعد والتنزيه، لعظمته وعلو منزلته؛ لأنَّه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١)، وهو الخالق العظيم الموجد لهذا الكون، فاطر السموات والأرض، ولكرمه وإحسانه، ناديناه، ولكنه نداء خرج لغرضٍ مجازي هو الدعاء، وخلاصة القول: إن المشير المقامي المتمثل في هذا النص بأسلوب النداء، قد جاء واضحًا لوجود القرائن التي رفدته، ولترابط السياق، فكان مقصد المتكلم واضحًا، من خلال هذا المشير المقامي ودلالته.

الأسماء الموصولة:

هي أسماء مبهمة غامضة المعنى في نفسها، لوقوعها على كل شيء، من حيوان، وجماد، وغيرهما؛ فهي لا تدل على ذات بعينها، بل تدلُّ على مطلق الغياب، ولكي يتعين المقصود منها تحتاج إلى إضافةٍ أو وصفٍ أو تمييزٍ، كون الاسم الموصول لا يحمل دلالة في ذاته، إلّا إذا اتصل بجملة تفيد ذلك المعنى المقصود، فهو اسم يصل بين جملتين، لا يتحقق معنى أولاهما بدون الثانية[٨٦]. وقد عدّها كل من: روبرت دي بوجراند والأزهر الزناد من الألفاظ الإشارية، التي لا تمتلك دلالة مستقلة، بل تعود إلى عنصر أو عناصر أخرى في الخطاب[٨٧]، وهي القرينة اللغوية المتمثلة في الصلة والعائد، والقرينة غير اللغوية المتمثلة بالسياق الخارجي للغة، فبهما يزال ذلك الإبهام والغموض. ويبدو أنَّ في ذلك الخفاء والغموض الذي يكتنف الاسم الموصول المختار من المتكلّم، تأثيرًا كبيرًا وملموسًا في نفس المتلقي، لتعدّد المعاني والأغراض المحتملة، وهنا يتوجب على المستمع (المتلقي)، إعمال فكره وإطلاق العنان لخياله؛ لإدراك الغرض من الإشارة بالأسماء الموصولة، ومن يُقصد بها، عن طريق اللجوء إلى عناصر أخرى خارج النص، ليكشف الغموض وتفهم المقاصد. ويقسم الاسم الموصول الى قسمين، هما[٨٨]:

الاسم الموصول الخاص: وهو: (ما وضع لكل من المفرد والمثنى والجمع مذكرًا أو مؤنثًا لفظ خاص به، وهو: الذي، اللذان، الذين، التي، اللتان، اللاتي، اللائي، الألي).

الاسم الموصول المشترك: وهو:

(الاسم الذي يكون بلفظ واحد للجميع، فيشترك فيه المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث، وهو: مَنْ، ما، ذا، ذو، وأي وأل). وسمّي بالمشترك؛ لكونه يصلح للأنواع جميعها، ولا يقتصر على بعضها، فصورته ثابتة مهما تغيرت الأنواع التي دلّ عليها.

وقد برز هذان النوعان في كلام الشارح، حول خطبة أمير المؤمنين (عليه السلام) في معرفة الله سبحانه وتعالى ووحدانيَّته، ونفي الصفات عنه، التي قال فيها: «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ اَلتصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ اَلْإِخْلاَصُ لَهُ، وَكَمَالُ اَلْإِخْلاَصِ لَهُ نَفْيُ اَلصِّفَاتِ عَنْه، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ اَلْمَوْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ اَلصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اَللهَ سُبْحَانَهُ؛ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ؛ فَقَدْ ثَنَّاهُ، وَمَنْ ثَنَّاهُ؛ فَقَدْ جَزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ؛ فَقَدْ جَهِلَهُ، وَمَنْ جَهِلَهُ؛ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ؛ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ، فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ قَالَ فِيمَ؟؛ فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ عَلاَمَ؟؛ فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ»[٨٩]، لنجد ابن أبي الحديد يشرح قائلًا: (وأمَّا قوله: (وكمال معرفته التصديق به)؛ فلأنَّ معرفته قد تكون ناقصة، وقد تكون غير ناقصة، فالمعرفة الناقصة هي المعرفة بأنَّ للعالَم صانعًا غير العالم، وذلك باعتبار أنَّ الممكن لا بد له من مؤثر، فمن علم هذا فقط علم الله تعالى، ولكن علمًا ناقصًا، وأمَّا المعرفة التي ليست ناقصة؛ فأن تعلم أنَّ ذلك المؤثر خارج عن سلسلة الممكنات، والخارج عن كل الممكنات ليس بممكن، وما ليس

بممكن؛ فهو واجب الوجود، فمن علم أن للعالم مؤثرًا واجب الوجود؛ فقد عرفه عرفانًا أكمل، من عرفان أن للعالم مؤثرًا فقط...)[٩٠]، ولك أن ترى الأسماء الموصولة بنوعيها حاضرة في شرحه وهي: (فمَنْ - التي - ما - فمَنْ)، فالاسم الموصول المشترك (مَنْ)، يشير إلى العبد العالم بالله تعالى، ولكن كان علمًا ناقصًا، لأنَّه آمن بالصانع الموجد لهذا الكون فقط، على أساس أنَّه لا بد لكل ممكن من الموجودات من صانع، أمَّا (مَنْ) الثانية، فتشير إلى العابد العارف بالله تعالى معرفة حقيقية كاملة بلا نقص؛ لأنَّه أقرَّ بالصانع واجب الوجود، غير المحتاج لغيره. نلاحظ اختلاف دلالتي الاسم الموصول تبعًا لاختلاف المقام، ومقاصد المتكلّم، وأنَّهما أشارا بوضوح؛ بسبب ما تقدَّم من قرائن لفظية ومعنوية جسّدها النَّص، ولا يخفى ما لدور جملة صلة الموصول من أثر واضح، في وصول رسالة منتج النص إلى المتلقي، والأمر ذاته في دلالة الاسم الموصول المشترك (ما)، إذ يشير إلى ما يقابل واجب الوجود، وهو ممكن الوجود، الخارج عن سلسلة الممكنات، فالذي ليس بممكن فهو واجب، ويبدو أنَّ الشارح أراد تعميم الأمر واتساعه، بأنَّ كل الموجودات ممكنة، تعود لخالق واجب، وما زاد بيان الاسم الموصول هنا ووضوح دلالته، هي جملة الصلة.

وأمَّا الاسم الموصول الخاص (التي)، الذي يعبّر عن المفردة المؤنثة، فأشار إلى المعرفة غير الناقصة، بأنَّه تعالى واجب الوجود، وليس ممكن الوجود، وفي الاسم الموصول هنا

نلمس إحالة قبلية، أفادت تماسك النص وانسجامه، وقوته في سبك جمله، بجودة اختيار المشيرات فيه.

الخاتمة وأهم النتائج

بعد انتهاء البحث في المشيرات الشخصية، وأثرها في بيان ووضوح ما تشير إليه، لمعرفة مقاصد المتكلّم، كان لابن أبي الحديد المعتزلي، وقفة واضحة وهو يستعمل المشيرات الشخصية في شرحه لنهج البلاغة، ممَّا أدَّى إلى النتائج الآتية:

١. ظهرت في الآونة الأخيرة آلية جديدة في البحث اللغوي التداولي، وهي إجراءات ومقاربات تطبيقية عملية، للنظريات الغربية الحديثة في متون عربية لغوية قديمة، فكان شرح نهج البلاغة ميدانًا دسمًا لتطبيقها فيه، والخروج بنتائج تثري الدراسات والبحوث المختلفة، التي تدمج التراث بالحاضر، ومن ثَمَّ يمكن القول: إنَّ هناك إمكانية وجدوى لتطبيق النظريات الغربية في المدونات العربية القديمة، بخلاف من قال غير ذلك.

٢. تنوّعت المشيرات الشخصية، وتعدّدت بصورها وأشكالها المختلفة، في شرح نهج البلاغة، وهي ضمائر الحضور (المتكلّم والغائب)، وضمائر الغائب، وأسماء الإشارة، والنداء، والأسماء الموصولة، بشكل لافت للنظر عند ابن أبي الحديد، وقف الباحث عند نماذج مختارة منها.

٣. المشيرات الشخصية تتميز بقصر ألفاظها، إذ يُشار بها إلى كلمة أو جملة أو نص، وهي ألفاظ مخصوصة ومحدّدة.

٤. وكان هناك توازن ملحوظ في استعمال الشارح، لما لها من أهمية في فهم الدلالات، التي قد تبدو غامضة

للوهلة الأولى.

٥. لابد من حضور طرفي الخطاب، وهما: (المتكلّم والمتلقي)، في أي عملية تواصلية، حتى تتحقق الغاية من هذا التواصل، فضلًا عن رسالة المتكلّم وزمان التكلّم ومكانه.

٦. لثقافة المتلقي وإحاطته بمقام الحال، وسياق الكلام، أهمية كبيرة في نجاح المتكلّم بإيصال رسالته للمستمع، بلا عناء أو تكلف.

الهوامش

(١) استراتيجيات الخطاب مقاربة تداولية: عبد الهادي بن ظافر الشهري: ٢٧.

(٢) ينظر: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم: خليفة بوجادي: ٥٢.

(٣) ينظر: التداولية عند علماء العرب: مسعود صحراوي: ٢٦.

(٤) ينظر: استراتيجيات الخطاب: ٨٠.

(٥) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: محمود أحمد نحلة: ١٧ والتداولية: ٢٧.

(٦) ينظر: استراتيجيات الخطاب: ٨١- ٨٢.

(٧) ينظر: كتاب سيبويه: ٢/ ٧٧، والمقتضب: المبرّد (ت٢٨٥هـ): ٤/ ١٦٨.

(٨) الكتاب: سيبويه (ت١٨٠هـ):٢/ ٦.

(٩) ينظر: لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب: ذهبية حمو الحاج: ٩٨.

(١٠) معالم التداولية في كتاب النظرات للمنفلوطي: عبده العزيزي إبراهيم العزيزي: ٣٦٦.

(١١) ينظر: مظاهر التداولية في مفتاح العلوم للسكاكي (ت٦٢٦هـ) باديس لهويمل: ٣٤- ٣٥.

(١٢) ينظر: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب دراسة معجمية: ٨٦.

(١٣) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١٩.

(١٤) ينظر: قضايا في اللغة واللسانيات وتحليل الخطاب: محمد محمد علي يونس: ٦١، وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١٧- ١٨.

(١٥) ينظر: النحو الوافي: عباس حسن: ١/ ٢٥٥.

(١٦) ينظر: نسيج النص: ١١٧.

(١٧) مفتاح العلوم: ١١٦.

(١٨) هذا ما يراه آن روبول، ينظر مفصلًا ما جاء في القاموس الموسوعي للتداولية: ٣٥٩.

(١٩) ينظر: النص والخطاب والإجراء: روبرت دي بوجراند، ترجمة تمام حسان: ٣٣٣.

(٢٠) شرح المفصل: ٢/ ٢٩٢.

(٢١) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١٧- ١٨.

(٢٢) ينظر: النظرية اللغوية في التراث العربي: محمد عبد العزيز عبد الدايم: ٢١٦.

(٢٣) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها: تمام حسان: ١١١.

(٢٤) شرح ابن عقيل: ابن عقيل الهمداني: ١/ ٨٨.

(٢٥) ينظر: لسان العرب: ابن منظور: ٤/ ٤٩١.

(٢٦) ينظر: المشيرات المقامية لنماذج من ديوان اللهب المقدس لمفدي زكريا: ١٥.

(٢٧) ينظر: استراتيجيات الخطاب: ٧٩.

(٢٨) الكتاب: ٢/ ٦.

(٢٩) ينظر: استراتيجيات الخطاب: ٩٧.

(٣٠) شرح نهج البلاغة: ١/ ١٥، وينظر: ١/ ١٩١، و٢/ ٣٢٠، و٣/ ١٠، و٤/ ٣٢٦، و٧/ ٦٥، و١٨/ ١٤٤، وغيرها، على سبيل المثال لا الحصر.

(٣١) لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب: ١٠٠.

(٣٢) ينظر: م. ن، ٨٢.

(٣٣) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٢٤١.

(٣٤) م. ن: ١٠ (المقدمة)، وينظر: ٣/ ١٠.

(٣٥) رواه النسائي في الكبرى (٨١٤٨)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٧٦٥)، والحاكم في المستدرك (٤٥٧٦). وغيرها.

(٣٦) بحار الأنوار: المجلسي، ١/ ١٤٥.

(٣٧) شرح نهج البلاغة: ١/ ١١٨- ١١٩، وينظر: ٣/ ١٦٢، و٦/ ٤٤.

(٣٨) م. ن: ١/ ٥٥.

(٣٩) م. ن: ١/ ٥٥، وينظر: ٢/ ٢٨١، و٣/ ١٦٢، و٥/ ٣٠٠، و٦/ ٤٤- ٤٥، و٧/ ١٠٠، و١٢/ ٢٩٨، و١٨/ ١٤٤، وغيرها على سبيل المثال لا الحصر.

(٤٠) م. ن: ٧ (المقدمة)، وينظر: ٨/ ٦٣.

(٤١) شرح نهج البلاغة: ١/ ١١٨، وينظر: ١/ ٨، و١/ ١٩٥، و٢/ ٣٢٠، و٤/ ٣٢٦، و٦/ ١٥٤، و٧/ ٦٤، و٨/ ٦٣، على سبيل المثال لا الحصر.

(٤٢) ينظر: م. ن: ٢٩٣- ٢٩٤.

(٤٣) ينظر: م. ن: ٢٩٤.

(٤٤) نهج البلاغة: ١/ ١٥٩، وينظر: ١/ ٨.

(٤٥) م. ن: ١/ ١٥٩- ١٦٠.

(٤٦) م. ن: ٤٥.

(٤٧) استراتيجيات الخطاب:١/ ١٢٥.

(٤٨) م. ن: ١٥ (المقدمة)، وينظر: ١/ ١٩١، و١/ ١٩٥، و٨/ ٦٣.

(٤٩) يُنظر: الذاتية في الشعر الجاهلي، تناول تداولي لمعلقة امرئ القيس: ٢٩.

(٥٠) شرح نهج البلاغة: ١/ ١٥٥.

(٥١) نتائج الفكر: ١٧٤.

(٥٢) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١٧- ١٨.

(٥٣) ينظر: استراتيجيات الخطاب: ٨٢.

(٥٤) ينظر: التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٢٦٩.

(٥٥) شرح نهج البلاغة: ١/ ٣٠، وينظر: ٢/ ٢٤٣، ٢/ ٣٢٠، ٣/ ١٩٢، ٤/ ٢١١، ١٦/ ٣٧، على سبيل المثال لا الحصر.

(٥٦) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها: ١١٠.

(٥٧) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٨٣.

(٥٨) ينظر: كتاب العين: الفراهيدي: ٢/ ١٣٧ مادة (فلت).

(٥٩) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٨٣.

(٦٠) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٨٢، وينظر: ١/ ٨١، و١/ ٨٣، و٣/ ١٥٥، و٧/ ٨، و٧/ ٦٤، على سبيل المثال لا الحصر.

(٦١) م. ن: ٢/ ٢٨٣.

(٦٢) م. ن: والصفحة نفسها.

(٦٣) ينظر: التداولية أصولها اتجاهاتها: جواد ختام: ٧٧- ٧٨.

(٦٤) ينظر: النحو الوافي: ١/ ٢٣٠- ٢٣٢.

(٦٥) ينظر: دراسات في الأدب والنقد ثمار التجربة: د هادي نهر: ٣٩، ولسانيات التلفظ وتداولية الخطاب: ١١٣.

(٦٦) لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب: ١٠٢.

(٦٧) ينظر: م. ن: ١٠٣.

(٦٨) ينظر: الإشاريات الشخصية ومقاصدها التداولية في شعر عبد الله البردوني: ريمة يحيى، جودي مرداسي: ٥٦.

(٦٩) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٣٣٤، وينظر: ١/ ١٩١، و٢/ ٣٠٠، و٢/ ٣٣، و٢/ ٣٢٠، و٤/ ٦١، و٤/ ٣٢٦، و٧/ ٦٤، ١٦/ ٣٧، و١٨/ ١٤٤، وغيرها.

(٧٠) ينظر: نسيج النص، بحث فيما يكون

به الملفوظ نصًّا، ٨- ١١.

(٧١) المشيرات المقامية: نرجس باديس: ٢٧٨.

(٧٢) مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب: محمد يونس علي: ١٨.

(٧٣) اللغة العربية معناها ومبناها: ١٠٩.

(٧٤) شرح نهج البلاغة: ١٥ (المقدمة)، وينظر: ١/ ٨٧، و١/ ٨٣، ١/ ١٩١، ٣/ ١٠- ١١، و٣/ ١٦٢، و٤/ ٢٨٧، و٤/ ٣٢٩، و٥/ ٢٩٧، و٦/ ٤٤ و٧/ ٦٤، و١٦/ ٣٧، و١٨/ ١٤٤، وغيرها.

(٧٥) م. ن: ١٥ (المقدمة)، وينظر: ١/ ١٩١، و٣/ ١١، و٤/ ٦١، و٨/ ٦١، و٨/ ٨١، وغيرها.

(٧٦) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١٩.

(٧٧) ينظر: المشيرات المقامية: ٢٤٨.

(٧٨) ينظر: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: ٣.

(٧٩) ينظر: الإشاريات الشخصية في الكاشف عن حقائق السنن (للطيبي (ت٧٤٣هـ): ١٤.

(٨٠) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ١٩.

(٨١) ينظر: القصدية والإشاريات: دراسة تداولية: نورة سيد أبو المجد محمد: ١٨٣.

(٨٢) ينظر: المشيرات المقامية: ٢٢٥.

(٨٣) شرح نهج البلاغة: ٤/ ٢٢.

(٨٤) شرح: ٦/ ٢٣.

(٨٥) م. ن: ٧/ ٨.

(٨٦) ينظر: شرح المفصل: ابن يعيش: ٢/ ٣٧٢، وتجديد النحو: شوقي ضيف: ١١، والأسماء الموصولة بين المفهوم والوظيفة في ضوء اللسانيات المعاصرة: نعيمة سعدية: ٤٣.

(٨٧) ينظر: الاتجاه التداولي والوسيط في الدرس اللغوي: نادية رمضان النجار: ٩٣.

(٨٨) النحو الأساسي: أحمد مختار عمر وآخرون: ٤٧، والنحو الوافي: عباس حسن: ١/ ٤٤.

(٨٩) شرح نهج البلاغة: ١/ ٦٢.

(٩٠) م. ن: ١/ ٦٣، وينظر: ٢: ٣٢٠، و٤/ ٦١، و٥/ ٦١، و٥/ ٣٠٠، و٨/ ٦٥، و١٠/ ٦٧، وغيرها.

ثبت المصادر

القرآن الكريم

١. آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: د. محمود أحمد نحلة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط ١، ٢٠١١م.

٢. الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي: نادية رمضان النجار، مؤسسة حورس، الإسكندرية، ط ١، ٢٠١٦ م.

٣. استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.

٤. بحار الأنوار: محمد باقر المجلسي (ت١١١١هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت، (د. ط)، ١٩٨٠م.

٥. التداولية أصولها اتجاهاتها: جواد ختام، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، ط ١، ٢٠١٦ م.

٦. التداولية اليوم علم جديد في التواصل: آن روبول وجاك موشلار، ترجمة: د. سيف الدين دغفوس، ود. محمد الشيباني، المنظمة العربية لترجمة، بيروت – لبنان، ط ١، ٢٠٠٣م.

٧. التداولية عند علماء العرب: مسعود صحراوي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.

٨. تجديد النحو: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط ٦، (د. ت).

٩. دراسات في الأدب والنقد ثمار التجربة: د. هادي نهر، عالم الكتب الحديث، أربد – عمان، ط ١، ٢٠١١م.

١٠. شرح ابن عقيل: قاضي القضاة بهاء الدين بن عقيل العقيلي (ت٧٦٩هـ)، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، نشر وتوزيع دار التراث، القاهرة، ط٢، ١٩٨٠م.

١١. شرح مشكل الآثار: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة المصري المعروف بالطحاوي (ت٣٢١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

١٢. شرح المفصل: موفق الدين بن يعيش (ت٦٤٦هـ)، عالم الكتب، بيروت، (د. ت).

١٣. شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد

المعتزلي (ت٦٥٦هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط٣، ٢٠٠٩م.
١٤. في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم: خليفة بوجادي، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط١، ٢٠٠٩.
١٥. القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة: مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف: عز الدين المجدوب، مراجعة: خالد ميلاد، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، (د. ط)، ٢٠١٠م.
١٦. قضايا في اللغة واللسانيات وتحليل الخطاب: محمد محمد علي يونس، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠١٣م.
١٧. كتاب سيبويه: أبو بشر بن عثمان بن قنبر، تحقيق: د. عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨م.
١٨. كتاب العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن احمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (د. ت).
١٩. لسان العرب: محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعى الأفريقي (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٤١٤ هـ.
٢٠. لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب: ذهبية حمو الحاج، دار الأمل للطباعة، ردمك، (د. ط)، ١٩٨٨م.
٢١. اللغة العربية معناها ومبناها: تمام حسان، الهيأة المغربية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٧٩ م.
٢٢. المستدرك على الصحيحين: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت٤٠٥هـ)، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
٢٣. المشيرات المقامية في اللغة العربية: نرجس باديس، مركز النشر الجامعي، تونس، (د. ط.)، ٢٠٠٩م.
٢٤. المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب دراسة معجمية: نعمان بو قرة، عالم الكتب الحديثة، الأردن.
٢٥. مظاهر التداولية في مفتاح العلوم

للسكاكي (ت٦٢٦هـ) باديس لهويمل، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط ١، ٢٠١٤م.

٢٦. معالم التداولية في كتاب النظرات للمنفلوطي، عبده العزيزي إبراهيم العزيزي، مؤسسة حورس الدولية، الإسكندرية، مصر، ط ١، ٢٠١٧م.

٢٧. مفتاح العلوم: أبو يعقوب بن علي السكاكي (ت٦٢٦هـ)، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٠م.

٢٨. المقتضب: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥هـ)، تحقيق عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، لبنان، (د. ط)، ١٩٩٣م.

٢٩. مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب: محمد محمد يونس علي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت – لبنان، ط ١، ٢٠٠٤م.

٣٠. النحو الأساسي: أحمد مختار عمر وآخرون، منشورات دار السلاسل، الكويت، ط٤، ١٩٩٤م.

٣١. النحو الوافي: عباس حسن، دار المعارف مصر ط ٣، (د. ت).

٣٢. نسيج النص بحث فيما يكون به الملفوظ نصًّا: الأزهر الزناد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩٣م.

٣٣. النص والخطاب والإجراء: روبرت دي بوجراند، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب القاهرة، ط ١، ١٩٩٨م.

٣٤. النظرية اللغوية في التراث العربي: محمد عبد العزيز عبد الدايم، ط١، دار السلام، مصر، ٢٠٠٦م.

٣٥. سنن النسائي: أحمد بن علي أبو عبد الرحمن النسائي (ت٣٠٣هـ)، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

البحوث والرسائل الجامعية

١. الأسماء الموصولة بين المفهوم والوظيفة في ضوء اللسانيات المعاصرة: نعيمة سعدية: بحث منشور في مجلة حوليات المخبر كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد٢، ٢٠١٤م.

٢. الإشاريات الشخصية ومقاصدها

التداوليـة في شـعر عبـد الله البردوني: ريمـة يحيـى، جـودي مـرداسي: بحـث منشـور في مجلـة إشـكالات في اللغـة والأدب، مـج:١٠، العـدد: ٤، ٢٠٢١م.

٣. المـشيرات المقاميـة لـنماذج مـن ديـوان اللهـب المقـدس لمفـدي زكريـا: الهام ملحـعين، وفـاء بـن عمار، رسـالة ماجسـتير، كليـة لآداب واللغـات، جامعـة العـربي بـن مهيـدي أم البواقـي، الجزائـر: ٢٠١٧م.

٤. القصدية والإشاريات: دراسة تداولية: أ/ نورة سيد أبو المجد محمد، مجلة كلية الآداب – جامعة بني سويف، العدد: ٥٦، يوليو – سبتمبر ٢٠٢٠م.